الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique

المركز الجامعي نور بشير البيض
Centre Universitaire Nour Bachir El Bayadh

معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم العلوم الإنسانية

اسم ولقب الأستاذ: الأعرج داودي

الرتبة: أستاذ محاضر " أ "

عنوان المطبوعة

سند بيداغوجي في مقياس المشرق الإسلامي ما بين القرنين (2-7هـ/8-13م)

التخصص: تاريخ عام

المستوى: السنة الثانية ليسانس

السداسي: الرابع

الموسم الجامعي:

1446-1447ه/2025-2026م

محاور المقياس

1_الدولة الأموية فترة الضعف: قراءة في أسباب السقوط

2_الدعوة العباسية، والثورة، وقيام الدولة

3_الخلفاء العباسيون في العصر العباسي الأول، وتنظيم الدولة (132-247هـ/750-861م)

4_أهم مميزات العصر العباسي الأول، وأهم الصعوبات الداخلية والخارجية التي واجهت الخلفاء

5_النهضة العلمية والصراع العقائدي بين السنة والمعتزلة

6_فترة الفوضى العسكرية (247-334هـ/861-946م). أهم مميزاتها والصعوبات التي واجهت الخلفاء خلالها

7_الدويلات المستقلة عن الخلافة العباسية

8_الخلافة العباسية فترة التسلط البويهي (334-447هـ/946-1055م)

9_الخلافة العباسية زمن السيطرة السلجوقية (447-590هـ/1055-1194م)

10_علاقات الدولة العباسية الخارجية في فترة البويهيين

11_علاقات الدولة العباسية الخارجية في فترة السلاجقة

12_النهضة العلمية فترة البويهيين والسلاجقة

13_الخلافة العباسية في الفترة الأخيرة (622-656هـ/1255-1258م). قراءة في أسباب الضعف والانهيار

14_الاحتلال المغولي

15_سقوط بغداد(656هـ/1258م

فهرس المحتويات

فصول الدراسة وعناوينها	الصفحة
مقدمة	أ
الفصل الأول: الخلافة العباسية من الدعوة وقيام الدولة إلى نهاية العصر العباسي الأول	
1_ أسباب ضعف الدولة الأموية وسقوطها	2
2-الدعوة العباسية وقيام الدولة	5
3_ الخلفاء العباسيون وتنظيم الدولة خلال العصر العباسي الأول، "المميزات والصعوبات"	12
4_ النهضة العلمية والصراع العقائدي بين السنة والمعتزلة	32
الفصل الثاني: الخلافة العباسية في فترة الضعف والاضمحلال	
1_ فترة الفوضى العسكرية (247-334هـ/861-946م)، المميزات والصعوبات	43
2_ الدويلات المستقلة عن الخلافة العباسية	54
3_ الخلافة العباسية خلال عهد الدولتين البويهية والسلجوقية (334-590هـ/946-1194م)	63
4_ علاقات الدولة العباسية الخارجية في فترة البويهيين والسلاجقة	
5_ النهضة العلمية فترة البويهيين والسلاجقة	69
الفصل الثالث: الاحتلال المغولي للشرق الإسلامي، وسقوط بغداد عاصمة الخلافة	
1_ الخلافة العباسية خلال الفترة (622-656هـ/1255-1258م). قراءة في أسباب الضعف والانهيار	75 76
2_ نشأة الدولة المغولية	79
3_ احتلال المغول للشرق الإسلامي	82
4_ سقوط بغداد عاصمة الخلافة العباسية	
خاتمة	
قائمة المصادر والمراجع	

مقدمة

مقدمة:

تظافرت الكثير من الظروف والأسباب، التي أدت إلى ضعف الدولة الأموية وزوالها. وقد استغل العباسيون انشغال بني أمية في الصراع حول السلطة، والتنافس بين القبائل العربية اليمنية والقيسية، وظهور الفتن والثورات، فأحسنوا تنظيم الدعوة ونشرها في المجتمع الخرساني والكوفي، وكان شعارهم الرضا من آل البيت. ولما تيقن بنو العباس من ضعف بني أمية في العراق وخرسان، ونجاح الدعاية المغرضة في تشويه صورة بني أمية، وانتشار البغض والرغبة في زوال دولتهم بين العرب اليمنية والعجم بخرسان، أقدموا على إعلان الثورة، واستطاعوا إقامة الدولة وانتزاع الخلافة.

تجدر الإشارة إلى أن الخلافة العباسية، شهدت منذ قيامها تطورا سياسيا، كان له الأثر البالغ على الأمة الإسلامية. وقد عرفت تنوعا عرقيا، نمت فيه النزعة القومية الشعوبية الساعية إلى الاستقلال عن الخلافة العباسية، واختلفت طبيعة العلاقات التي جمعت بينهم، وذلك حسب العوامل السياسية والمذهبية. أما الخليفة العباسي، لم يسلم من تغول العجم في السلطة، وسيطرتهم على زمام شؤون الدولة، حتى صار الخلفاء ألعوبة في يديهم.

وكان ظهور المغول خطرا على بلاد المسلمين، وذلك في فترة شهدت ضعف وانقسام الأمة الإسلامية، وانهيار قوة الدولة العباسية وتراجع نفوذها. فلما لم تستطع الدول الإسلامية في بلاد الشرق من وقف الغزو المغولي الهمجي، بسبب عدم وحدة الكيانات السياسية الإسلامية المتنافسة، التي ضعفت نظرا للأطماع والصراعات فيما بينها، تمكن المغول من احتلالها وصولا إلى بغداد، التي انهارت بسهولة لأسباب متعددة، وقتل آخر خلفائها، وبذلك سقطت الخلافة العباسية التي دامت ما يقارب خمسة قرون.

موضوع مقياس المشرق الإسلامي خلال الفترة الممتدة ما بين (7-2هـ/8-13م)، يثير إشكالية تتمحور حول المسار السياسي الذي شهدته الخلافة العباسية، وأبعاد الأزمة الحضارية التي تولدت عن الاحتلال المغولي لبلدان الشرق الإسلامي. والإجابة على الإشكالية، يتطلب طرح جملة من الأسئلة:

ما هي الظروف والأسباب التي أدت إلى ضعف الدولة الأموية وسقوطها؟ ما هي مراحل الدعوة العباسية؟ ما هي مميزات وصعوبات العصر العباسي الأول؟ ما هي مميزات وصعوبات عصر الضعف والاضمحلال الذي شهدته الخلافة العباسية؟ كيف تطورت الحركة العلمية في ظل الخلافة العباسية؟ أين يكمن الخطر المغولي على المشرق الإسلامي؟

مقياس المشرق الإسلامي، أحد مقاييس الوحدة الأساسية، المبرمجة لطلبة السنة الثانية ليسانس تاريخ عام، التي تقدم محاور تتضمن دروسا حول تاريخ وحضارة المشرق الإسلامي في ظل الخلافة العباسية. وقد اعتمدنا في عرض المادة العلمية، مناهج البحث التاريخي، حيث اعتمدنا المنهج التاريخي السردي والوصفي، وذلك من خلال سرد أخبار الدولة العباسية، ووصف الأعلام والوقائع ومظاهر النهضة العلمية. أما اعتمادنا على المنهج التحليلي والمقارن، كان من خلال

تحليل النصوص التاريخية، والمقارنة بين المواقف والآراء المختلفة، والوصول إلى نتائج ومخرجات الدراسة.

وقد تضمن السند البيداغوجي جميع محاور البرنامج المقرر في مقياس المشرق الإسلامي الموجه إلى طلبة السنة الثانية تاريخ عام، والتي شملت قراءة في أسباب ضعف وسقوط الدولة الأموية، ومراحل الدعوة وقيام الدولة العباسية، إضافة إلى مميزات وصعوبات المراحل التي مرت بها الخلافة العباسية ما بين الازدهار والضعف والاضمحلال، والتطور الذي شهدته الحركة العلمية. أما موضوع الاحتلال المغولي، يعد أحد أهم محاور البرنامج، الذي يتناول الأوضاع السياسية التي عاشتها الخلافة العباسية وبلدان الشرق الإسلامي في ظل التوسع المغولي، الذي انهارت أمامه جميع الدول الإسلامية، وقضى على الخلافة العباسية.

الفصل الأول: الخلافة العباسية من الدعوة وقيام الدولة إلى نهاية العصر العباسي الأول

1_أسباب ضعف الدولة الأموية وسقوطها

2-الدعوة العباسية وقيام الدولة

3_الخلافة العباسية خلال العصر العباسي الأول، "المميزات والصعوبات"

4_النهضة العلمية والصراع العقائدي بين السنة والمعتز

تعتبر الدولة الأموية من أكبر الدول قوة واتساعا في صدر العصر الوسيط، بل تميزت عن غيرها من الامبراطوريات، أنها حققت أكثر ما حققته في فترة قصيرة تقارب تسعين سنة فقط، إلا أن الدولة الأموية دب فيها الضعف ووصلت إلى مرحلة الاضمحلال والانهيار، حيث أدى ذلك إلى قيام الدولة العباسية على أنقاضها. وكانت الخلافة العباسية لها سلطة سياسية وروحية على العالم الإسلامي، رغم أنها لم تستطع الحفاظ على نفوذها في جميع الولايات التي كانت خاضعة لبني أمية، ولكنها شهدت ازدهارا حضاريا خاصة خلال العصر العباسي الأول. من هذا المنطلق، نطرح الأسئلة التالية: ما هي أسباب ضعف الدولة الأموية وظروف سقوطها؟ كيف نجحت الدعوة في إقامة الدولة العباسية؟ ما هي المميزات والتحديات التي شهدتها الخلافة العباسية خلال عصرها الذهبي؟ ما هي مظاهر النهضة العلمية، والصراع العقدي والفكري بين السنة والمعتزلة خلال هذه الفترة؟

1_ أسباب ضعف الدولة الأموية وسقوطها

رغم ما تمتعت به دولة بني أمية من التنظيم والقوة والاتساع شرقا وغربا، إلا أن بمجرد وفاة الخليفة هشام بن عبد الملك (125-105هـ/724-743م)، انهارت الدولة وانتشر الضعف والانقسام في بيت الخلافة، والولايات خاصة العراق وخرسان. فلما مات هشام بن عبد الملك، خلفه ولي العهد الوليد بن يزيد (126-125هـ/743-744م)، الذي كان قد شاع عنه، أنه فاسق يبيح الخمر واللهو، وبالغ بعضم حين اتهموه بالاستهزاء بالدين. وكان هشام بن عبد الملك، قد حاول استغلال ذلك، سعيا إلى خلعه من ولاية العهد وعقد البيعة لابنه مسلمة، إلا أنه فشل في ذلك، نظرا لتمسك بعض شيوخ بني أمية ببيعة قطعوها لأبيه الخليفة يزيد بن عبد الملك (101-105هـ/720-724م)[1].

نعتقد أن سبب اتهامه بالفسق، لا يتعلق بمسألة الاستقامة والأخلاق، إنما المسألة سياسية محضة، وذلك حين تعرض لحملة تشهير ترمي إلى خلعه من ولاية العهد، هذا وجد قبولا من بعض أعيان بني أمية. وتعد الإجراءات التي اتخذها الوليد بن يزيد، كرد فعل على ذلك، حين ابتدأ عهده بتصفية خصومه، حيث سجن يزيد بن هشام، وألقى القبض على أخيه سليمان بن هشام بن عبد الملك، وأمر بجلده مائة جلدة وحلق رأسه ولحيته، ثم نفاه إلى عمان ووضعه في السجن. وكان قد سعى إلى سجن العديد من شيوخ العرب وبني أمية، منهم إبراهيم ومحمد من أعيان بني مخزوم، وأعيان بني القعقاع من قبيلة عبس. وقد بايع لابنيه، وحاول إظهار حسن السيرة، وزاد من الأعطيات ساعيا بذلك إلى تحسين نظرة الناس إليه[2].

تجدر الإشارة إلى أن الصراع بين أمراء بني أمية، استمر في إضعاف الدولة واستنزاف مواردها، حيث نجد أن يزيد بن الوليد طمع في الخلافة، وسعى إلى تحقيق ذلك من خلال انتهاج

[1] ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت، دون تاريخ، ص 136؛ يوسف العش، الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ابتداءً من فتنة عثمان، ط 2، دار الفكر، دمشق، 1985، ص 301

[2] محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة الأموية، ط 7، دار النفائس، بيروت، 2010، ص 166؛ بوسف العش، المرجع السابق، ص 302

سياسة، تقوم على الدعاية المغرضة ضد ابن عمه الخليفة الوليد بن يزيد، واستغل في ذلك، ما شاع عنه من فساد قبل توليه الخلافة، وجمع الغاضبين من العرب اليمنية والقيسية، وكذلك من أعيان بني أمية إلى جانب القدرية، وخطط لإعلان الثورة والإطاحة به. ولما نجح يزيد بن الوليد في قتل ابن عمه بويع بالخلافة سنة 126هـ/ 744م، ولم يبق في سدة الحكم إلا ستة أشهر، فمات في نفس السنة، وخلفه أخوه إبراهيم بن الوليد[1]. وكان إبراهيم قد بايع لابن عمه عبد العزيز بن الحجاج ابن عبد الملك من بعده، إلا أن ابن عمهما مروان بن محمد المعروف بمروان الحمار، نظرا لاشتهاره بالصبر والقدرة على التحمل في قتال أعدائه، قد دخل معهما في قتال، واضطربت أحوال الدولة بسبب النزاع على السلطة، وبقي إبراهيم بن الوليد شهرين ونصف في الخلافة، ثم تنازل عنها لابن عمه مروان بن محمد الذي بويع سنة 127 هـ/ 745م[2].

ورغم أن مروان بن محمد تميز برباطة الجأش والشجاعة والصبر على قتال أعدائه، إلا أن الخطأ الذي ارتكبه حين لم يحافظ على التحالفات القبلية، التي اعتمدها بنو أمية طيلة فترة حكمهم، أدى إلى وقوع الفتنة بين القبائل العربية، وإدخال الدولة في صراعات أضعفتها، وذلك أنه تخلى عن قبائل بني كلب واليمانية التي كانت دوما نواة قوة الدولة، ونقل العاصمة الأموية إلى حرّان بين القبائل القيسية التي اتخذها عضدا للدولة، بدلا من اليمانية وعلى رأسهم بنو كلب، مما أذكى الصراع القبلي. ومهما يكن فإن ما أضعف الدولة يكمن في صعوبة التحديات القبلية والطائفية المذهبية، والاختلاف العقدي والفكري الذي اشتد في أواخر الفترة الأموية[3]. وكان مروان ابن محمد منشغلا بالحروب الداخلية ضد بني عمومته من بني أمية والقبائل اليمنية المساندة لهم، واشتغل بحصار المدن الشامية وإخضاعها كمدينة حمص واستنزاف الموارد في الحروب الداخلية، فالفتن ببلاد الشام والولايات أضعف الدولة وأدى إلى تزايد أطماع الخوارج والشيعة، وبني العباس الذين نجحوا في دعوتهم بالقضاء عليه[4].

ونشير إلى أن الصراع بين أمراء البيت الأموي من جهة، والتنافس بين القبائل اليمنية والقيسية من جهة أخرى، لم يكن السبب الوحيد لانحطاط وضعف الدولة، بل إن عدم استقرار ولاة الأقاليم، وتشبثهم بحكم الولايات إلى درجة رفض تسليم الولاية للولاة الجدد، قد ساهم في قوة خصوم الدولة وأعدائها، ومحاولتهم الإطاحة بالخلافة والاستقلال بالولايات. ومن ذلك، نذكر ما فعله عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والي العراق (126-129هـ/744-747م)، الذي أذكى الصراع بين اليمنية والقيسية، حيث قرب العرب اليمنية ورفعهم، ولم يبايع مروان بن محمد، ثم رفض تسليم الولاية للوالي الجديد النضر بن سعيد الحرشي الذي عينه مروان بن محمد، ونشب القتال بين ابن عمر على رأس اليمنية والنضر بن سعيد على رأس القيسية، وقد أدى هذا الصراع إلى ضعف سلطة الخلافة في ولاية العراق وما تبعها من أقاليم، وأتاح الفرصة لأعداء الدولة من الشيعة والخوارج، فانتفض الضحاك بن قيس الشيباني على رأس الخوارج وانضمت إليه قبائل

---

[1] يوسف العش، المرجع السابق، ص 303، 304

[2] البلخي أبو زيد أحمد، البدء والتاريخ، ج 2، وضع حواشيه خليل عمران المنصور، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1997، ص 266

[3] يوسف العش، المرجع السابق، ص 305، 313، 314

[4] الطبري أبو جعفر محمد، تاريخ الرسل والملوك، ج 7، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط 2، دار المعارف، مصر، 1967، ص 300، 301؛ محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 194، 195

ربيعة، وانتصر على جموع جند ابن عمر والنضر بن سعيد، فاضطر النضر للانسحاب واللحاق بالخليفة مروان بن محمد، ورغم أن الضحاك انهزم وقتل فيما بعد على يد الجيش الذي بعثه مروان ابن محمد، إلا أن الخوارج استمروا في قتالهم ونشر الفوضى والاضطراب بالعراق. أما الحجاز واليمن ثار فيه أبو حمزة المختار على رأس الخوارج واستولى على الحجاز سنة 129هـ/ 747م، إلا أن مروان بن محمد أرسل إليه جيشا فقتله[1]. وكان معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهم، قد خرج قبل ذلك على رأس الشيعة في الكوفة، إلا أن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز استطاع هزمه وطرده خارج العراق[2].

أما خرسان، لم تكن أفضل حال، حيث شهدت صراعا شديدا بين اليمنية والقيسية، الذي أذكاه الولاة المتعاقبين على حكم خرسان[3]، وما زاد الأوضاع تعقيدا، في سنة 126هـ/744م، رفض نصر بن سيار تسليم خرسان للوالي الجديد على العراق منصور بن جمهور، الذي عين من قبل الخليفة يزيد بن الوليد، ولم ينته هذا الاضطراب إلا بعد تجديد الخليفة مروان بن محمد الولاية لنصر بن سيار[4]، وكذلك وقوع الفتن والثورات، مثل إعلان معاوية بن سريج الثورة على بني أمية، ورفض بيعة مروان بن محمد، وانضم إليه الجهم بن صفوان، ودارت الحرب واشتعلت الفتنة بينهم وبين نصر بن سيار والي خرسان والجيش الأموي بالولاية[5]. لم تكن هذه الفتنة الوحيدة، بل شهدت خرسان فتن أخرى كخروج علي بن الكرماني وإعلانه الثورة على نصر بن سيار، ونشوب القتال بينهم، حيث أضعف ذلك نفوذ بني أمية ووواليهم بخرسان[6].

2-الدعوة العباسية وقيام الدولة

حجة بني العباس في شرعية دعوتهم، لم تستند إلى كونهم من آل البيت النبوي فقط، بل إنهم سعوا إلى إيجاد مسوغات أخرى، وذلك من أجل الترويج لحقهم في الدعوة وشرعية إقامة الدولة. ومن ذلك، ادعاء أن النبي صلى الله عليه وسلم، بشر عمه العباس بأن يكون من صلبه الملوك. وفي رواية أخرى، ذكر أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، هنأ عبد الله بن عباس رضي الله عنه، على مولوده، وحين حمله وحرّكه ودعا له، رده إلى أبيه، وقال:" خذ إليك أبا الأملاك. ويقال إنه قال: هاك أبا الخلفاء، وقد سميته عليًّا". فكان ذلك بشارة على ملك بني العباس[7]. نعتقد أن هذه الروايات ضعيفة، لا صحة لها، وهي مجرد روايات أشاعها العباسيون لتثبيت دعوتهم ثم دولتهم. وفي سياق هذه المساعي، ادعوا أن العلويين سلموا الدعوة إلى بني عمومتهم العباسيين، وذلك من خلال رواية أشاعوها، نصت على أن الإمام أبا هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية (ت 98هـ/ 716م)، حين غادر من عند الخليفة سليمان بن عبد الملك (99-96هـ/714-717م)، اشتد عليه المرض بأرض الشراة من بلاد الشام، وسبب ذلك قيل إن سليمان ابن عبد الملك دس له السم. وقد

---

[1] يوسف العش، المرجع السابق، ص 310، 311، 312

[2] ابن كثير، البداية والنهاية، ج 10، ط 8، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، 1990، ص 25، 26

[3] يوسف العش، المرجع السابق، ص 318

[4] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 4، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 2012، ص 312، 313؛ نبيلة حسن محمد، تاريخ الدولة العباسية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1993، ص 56، 57

[5] ابن كثير، المصدر والجزء السابقان، ص 26، 27

[6] البلخي أبو زيد أحمد، المصدر والجزء السابقان، ص 270

[7] البلخي أبو زيد أحمد، المصدر والجزء السابقان، ص 267

توجه أبو هاشم عبد الله إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس (ت 125هـ/743م) رضي الله عنهما بالحُميمة، وتنازل له عن الإمامة وسلمه أسرار الدعوة[1].

وقد مرت الدعوة العباسية بمرحلتين، الدعوة السرية والجهرية. أما ابتداء الدعوة السرية، كان في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز (101-99هـ/717-719م)، وذلك سنة 100هـ/718م، حين قرر محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، بعث الدعاة، فقال قولته الشهيرة لدعاته:" أما الكوفة وسوادها فهناك شيعة علي وولده، وأما البصرة وسوادها فعثمانية ترى الكف، تقول: كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل، وأما الجزيرة فحرورية، وأما الرقة فمسلمون أحلاف النصارى، وأما أهل الشام فلا يعرفون إلا طاعة بني مروان، وأما أهل مكة والمدينة فقد غلب عليها أبو بكر وعمر، ولكن عليكم بخرسان فإن هناك الصدور السليمة والقلوب الفارغة التي لم تتقسمها الأهواء ولم تتوزعها النحل"[2].

بناءً على ذلك، صارت خرسان دار الهجرة ومركز الدعوة، وكان اختيارها ليس عبثا، فهي بعيدة عن بيت الخلافة الأموي، وسكانها أكثرهم موالي وعجم يمقتون سياسة بني أمية القائمة على العنصر العربي. أما العرب اليمنية القاطنون بها ساخطون على بني أمية، ويبدو أن سلمة بن بُجير، وهو كبير الدعاة بالكوفة، قد اقتنع بانتقال الدعوة من الإمام أبي هاشم عبد الله إلى الإمام محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، هذا الأخير راسل الدعاة، كما دون أسماء الدعاة الذين أملاهم عليه سلمة بن بجير. وكان الداعية سلمة بن بجير، قد اشتد عليه المرض، فأوصى برئاسة الدعاة لأبي رباح ميسرة النبّال، ومات في طريق عودته إلى الكوفة. وقد اتخذ الإمام محمد بن علي من الكوفة موقعا لكبير دعاته ومقاما له، نظرا لموقعها القريب من خرسان ومن الحُميمة، وفي خرسان أغلب شيعة الإمام أبي هاشم عبد الله الذين صاروا شيعة لبني العباس، خاصة وأن الدعوة التي أطلقها الإمام محمد بن علي كانت قائمة على الدعوة إلى الرضا من آل محمد، وعدم ذكر اسمه. وكان كبير الدعاة بالكوفة مسؤولا عن نشر الدعوة والإشراف عليها بخرسان. وحسب بعض الروايات، فإن الإمام أبا هاشم هو من وضع أسس الدعوة، وحدد طرائق وأساليب نشرها، ودوَّن أسماء الدعاة والنقباء. فكان الإمام محمد بن علي قد اتبع ما وضعه أبو هاشم عبد الله، ومن ذلك تعيين اثني عشر نقيبا وسبعين داعية[3].

وهناك روايات أخرى، تقدم معطيات تاريخية تفيد بذكاء وحكمة الإمام محمد بن علي، وترجع له الفضل في تنظيم الدعوة، وتعيين النقباء والدعاة واختيار الأمصار، واتخاذ الحُميمة مركزا للدعوة، والكوفة مقرا لكبير الدعاة، وخرسان الإقليم المقصود في الدعوة، واتخاذ علامة وشعار الدعوة "الرضا من آل محمد" صلى الله عليه وسلم، والإصلاح، وعدم كشف صاحب الدعوة. وسبب ذلك، تضليل جواسيس وأعوان بني أمية عن اسم الإمام صاحب الدعوة، إضافة إلى حشد شيعة العلويين الذين يعتقدون أن الإمام من ذرية علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والدعوة

---

[1] ابن الأثير، المصدر والجزء السابقان، ص 101؛ نبيلة الحسن محمد، المرجع السابق، ص 62

[2] ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج 7، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992، ص 56

[3] حسين عطوان، الدعوة العباسية تاريخ وتطور، ط 2، دار الجيل، بيروت، 1995، ص 172، 174، 175، 176، 177، 178

إلى الإصلاح لاستقطاب الناقمين على سياسة بني أمية خاصة من الموالي والعجم والعرب اليمنية بخراسان[1].

تجدر الإشارة إلى أن الفضل في تنظيم الدعوة بالعراق، يعود إلى ثلاثة دعاة، هم: ميسرة العبدي، وبكير بن ماهان، وأبو سلمة الخلال. أما تنظيم الدعوة بخرسان، قام عليها الكثير من الدعاة، كان أبرزهم أبو عكرمة السراج مولى ابن عباس، ومحمد بن خنيس، وحيان العطار، وكثير الكوفي، وخداش البلخي. وكان فيهم سليمان بن كثير الخزاعي، كبير الدعاة ونقيب النقباء[2]. ففي سنة 102هـ/ م، بعث أبو رباح ميسرة النبَّال كبير الدعاة بالكوفة آنذاك، دعاةً إلى خرسان، فبلغ خبرهم الوالي سعيد خذينة (103-102هـ/720-721م)، فجمعهم وسألهم فادعوا أنهم تجار، وشهد بذألك قوم من اليمنية وربيعة وكفلوهم، فعفا عنهم، وقد عزله والي العراق عمر بن هبيرة، وعين مكانه مسلم بن سعيد الكلابي على خرسان[3]. وفي سنة 105هـ/723م)، اشتد المرض بميسرة النبَّال، وقبل وفاته أوصى بالدعوة من بعده لسالم بن بُجير، ولكنه لم يلبث بضع شهور حتى عزله الإمام محمد بن علي، وعين مكانه بكير بن ماهان. وفي سنة 107هـ/725م بعث بكير بن ماهان الدعاة إلى خرسان، إلا أن والي خرسان أسد بن عبد الله القسري كشف أمرهم، وقتل منهم الكثير، وممن قتل أبو عكرمة السَّراج (أبو محمد الصادق)، ومحمد بن خُنيس ومجموعة من الدعاة[4].

وفي سنة 127هـ/745م، التقى الإمام إبراهيم بن محمد مع الدعاة بمكة، وهم: سليمان بن كثير، ولاهز بن قريظ، وقحطبة، فدفعوا له الأموال والمتاع، وقدم سليمان بن كثير خلال هذا اللقاء أبا مسلم الخرساني إلى الإمام إبراهيم. وكان بُكير بن ماهان، قد اجتمع مع الدعاة، واتفقوا على اختيار اثني عشر نقيبا، كان كبير الدعاة فيهم سليمان بن كثير، ثم اختاروا بعد ذلك سبعين داعية. وقد أفادت الروايات، أن بُكير بن ماهان لما مات في سنة 127هـ/745مـ، خلفه أبو سلمة الخلال، بأمر من الإمام إبراهيم بن محمد. وقد تنقل أبو سلمة الخلال بين البلدان يوزع الرايات السوداء، ويشرف على تنظيمات الدعوة. من ذلك، نزوله على أبي عون داعيتهم بجرجان، ثم انتقل إلى سليمان بن كثير بمرو، ودفع له راية سوداء، وكان رأس الدعاة بخرسان. وفي هذه الفترة، عاين الظروف التي شهدتها خرسان من تدهور الأوضاع والصراع بين الوالي نصر بن سيار وخصوم بني أمية[5].

أما بخصوص الدعوة الجهرية، ففي سنة 128هـ/746م، أرسل الإمام إبراهيم بن محمد أبا مسلم الخرساني إلى خرسان، وعينه رئيسا على الدعوة فيها، وكان قد بلغ من العمر 19 عاما، ولهذا رفضه بعض كبار النقباء والدعاة، وفي مقدمتهم سليمان بن كثير، إلا أن الإمام إبراهيم أصر على توليته[6]. وما يثير الاهتمام، في سيرة أبي مسلم بخرسان، أن مسار الدعوة الجهرية وأحداث

---

[1] محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة العباسية، ط 7، دار النفائس، بيروت، 2009، ص 20، 21

[2] المرجع نفسه، ص 22

[3] اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي، م 2، تحقيق عبد الأمير مهنا، ط 1، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 2010، ص 239؛ حسين عطوان، المرجع السابق، ص 184

[4] المرجع نفسه، ص 188، 191

[5] مؤلف مجهول، أخبار الدولة العباسية، تحقيق عبد العزيز الدوري وعبد الجبار المطلبي، دار الطليعة، مطابع دار صادر، بيروت، 1971، ص 213، 216، 217، 221، 247، 248، 249، 250؛ ابن الأثير، المصدر والجزء السابقان، ص 345

[6] ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن، المصدر والجزء السابقان، ص 266؛ حسين عطوان، المرجع السابق، ص 257، 258

الثورة بخرسان، قد خطط لها الإمام إبراهيم ونفذها أبو مسلم الخرساني، واتضح ذلك من خلال وصيته له، وذلك بقوله:" إنك رجل منا أهل البيت، احفظ وصيتي، انظر هذا الحي من اليمن فالزمهم واسكن بين أظهرهم، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم، فاتهم ربيعة في أمرهم، وأما مضر فإنهم العدو القريب الدار، واقتل من شككت فيه، وإن استطعت أن لا تدع بخرسان من يتكلم بالعربية ففعل، وأيما غلام بلغ خمسة أشباب تتهمه فاقتله، ولا تخالف هذا الشيخ، يعني سليمان بن كثير، ولا تعصه، وإذا أشكل عليك أمر فاكتف به مني"[1].

وقد نزل أبو مسلم عند سليمان بن كثير بقرية سفيذنج بالقرب من مرو الشاهجان، واتخذها مركزا للدعوة، وبدأ في ترسيخ الدعوة وتنظيمها، وحقق في ذلك نجاحا كبيرا، وعظم أمره وارتفعت منزلته عند شيعة بني العباس بخرسان. وتجدر الإشارة إلى أن الأعاجم والعرب على حد سواء استجابوا لدعوة أبي مسلم الخرساني، من ذلك الفلاحين والدهاقين من العجم، والعرب من القبائل اليمانية وربيعة، وبعض من ذوي البصائر من مُضر[2]. وفي سنة 129هـ/747م، قرر الإمام إبراهيم بن محمد إظهار الدعوة، والإعلان الثورة، فكتب إلى أبي مسلم أن يوافيه مع قحطبة بن شبيب، ويجلب معه المال الذي جمعه من شيعته بخرسان؛ فتجهز أبو مسلم رفقة قحطبة ومجموعة من النقباء والدعاة، وجلب معه مبلغا كبيرا من المال قدر بثلاثمائة ألف وستين ألف درهم، فاشترى منها متاع التجار، وصاغ منها سبائك من الذهب والفضة، خبأها في الأقبية، واشترى البغال لحمل المتاع، وحين وصل إلى موضع "قُومس"، وصل إليه كتاب الإمام إبراهيم مع لواء وراية، يأمره بالرجوع إلى خرسان، ويكلف قحطبة بن شبيب ليأتي إليه في الموسم مع المال. فلما رجع أبو مسلم إلى مرو، ونزل بقرية سفيذنج، دفع بكتاب الإمام إلى سليمان بن كثير، وكان يتضمن أمر الإمام إبراهيم بإجهار الدعوة[3].

الجدير بالذكر، أن أول خطوة أقدم عليها أبو مسلم مراسلة نصر بن سيار، يدعوه فيها إلى الطاعة وبيعة الإمام، إلا أنه رفض ذلك[4]. وكان سليمان بن كثير قد التقى علي بن الكرماني وحرضه على نصر بن سيار، ودعاه إلى دعوة الرضا من آل محمد، والتحالف مع أبي مسلم، فوافق على ذلك، وكلف أخاه عثمان، الذي التقى مع أبي مسلم واتفقا على حرب نصر بن سيار. فلما بلغ الحبر نصر بن سيار، راسل علي بن الكرماني وحذره من مغبة التحالف مع أبي مسلم، وخطر ذلك على العرب جميعا. فلما رفض علي بن الكرماني، نهض نصر بن سيار يدعو العرب إلى قتال أبي مسلم، وأشاع أن أبا مسلم وأصحابه ليسوا على الإسلام في شيء، فاستجاب لدعوته كثير من الناس. ولما بلغت هذه الأخبار مسامع أبي مسلم، اجتمع بالنقباء والدعاة، فأشار عليه أحدهم بجمع من في معسكره، وإظهار العمل بالكتاب والسنة والرضا من آل محمد، ويطلب منهم البيعة على القتال. ففعل ذلك، وحقق نجاحا كبيرا، حيث استجاب له خلق كثير من الأمصار والبلدان، وبلغ الأمر إلى أن انقلب كثير ممن كان مع نصر، وانضموا إلى أبي مسلم[5].

---

[1] ابن الأثير، المصدر والجزء السابقان، ص 351
[2] حسين عطوان، المرجع السابق، ص 263، 264
[3] المرجع نفسه، ص 265، 266
[4] مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص 286
[5] المصدر نفسه، ص 288، 289، 290، 291، 292، 293

وفي 25 رمضان سنة 129هـ/747م، لبس أبو مسلم وسليمان بن كثير السواد، وكذلك الموالي، وكل من أجاب الدعوة، ثم نصب أبو مسلم اللواء والراية السوداء التي بعثها له الإمام إبراهيم، وأشعل النيران، وعج المعسكر بأنصار الدعوة. وفي يوم الفطر، بدأ القتال بين الفريقين، وذلك بعد مرور ثمانية عشر شهرا على ظهور أبي مسلم بخرسان. وقد بعث نصر بن سيار جيشا لقتال أبي مسلم، إلا أنهم انهزموا أمام جيش مالك بن الهيثم الخزاعي أحد قواد أبي مسلم، كما استولى خازم بن خزيمة على مرو الروذ وقتل عامل نصر بن سيار، وبعث أبو مسلم جيشا بقيادة النضر بن نعيم الضبي فاستولى على هراة. الأمر المثير للاهتمام، أن أبا مسلم لم يلبث أن حقق هذه الانتصارات حتى شرع في تنظيم ولاية خرسان، فعين مالك بن الهيثم على الشرطة، وخالد بن عثمان على الحرس، وكامل بن مظفر على ديوان الجند، ومسلم بن صبيح على ديوان الرسائل، وقد بلغ جيشه ما يقارب سبعة آلاف. وقد تيقن نصر بن سيار من خطورة الوضع، فيعث يطلب المدد والدعم من الخليفة مروان بن محمد، وأخبره أن صاحب الدعوة الإمام إبراهيم بن محمد، فألقى عليه القبض[1].

وفي شهر جمادى الأولى سنة 130هـ/748م، استولى أبو مسلم على مرو حاضرة ولاية خرسان، بعد أن تفكك تحالف القبائل العربية، وذلك بانضمام علي بن الكرماني إلى أبي مسلم الخرساني. أما نصر ين سيار، فقد هرب على رأس ثلاثة آلاف من جيشه إلى سرخس، وسيطر أبو مسلم على معسكره، وأمر بقتل جميع من كان فيه. ثم بعد ذلك، أقدم أبو مسلم على قتل علي ابن الكرماني. ثم أمر قحطبة بن شبيب بقيادة الجيش، والمسير لقتال نصر بن سيار بنيسابور، فانتقل نصر بن سيار إلى قومس. وفي ظل هذه الظروف الصعبة، أرسل يزيد بن عمر بن هبيرة والي العراق (129-132هـ/747-750م) جيشا بقيادة عامر بن ضبارة المرّي، وفيه من القادة أمثال نباتة بن حنظلة عامل جرجان، وذلك من أجل تقديم الدعم لنصر بن سيار بأمر من الخليفة الأموي مروان بن محمد، إلا أن قحطبة بن شبيب تمكن من قتل نباتة بن حنظلة، وإلحاق الهزيمة بجيش الشام الذي قتل منه ما يقارب عشرة آلاف[2].

وقد جمع قحطبة بن شبيب الغنائم، وبعثها إلى خالد بن برمك. وفي شهر محرم سنة 131هـ/749م، أرسل قحطبة ابنه الحسن بن قحطبة على رأس جيش إلى قومس، ثم وجهه من الرّي إلى همذان، وأرسل جيشا بقيادة العكّي إلى قُم وأصفهان، وسار قحطبة بن شبيب بنفسه لملاقاة عامر بن ضبارة المرّي، فتمكن من قتله، ولم ينج من الجيش الأموي إلا القليل. ثم استولى على نهاوند بعد ثلاثة أشهر من الحصار، وبعد ذلك انتقل إلى حلوان ودخل العراق. فلما بلغ قحطبة الزاب اشتبك مع يزيد بن عمر بن هبيرة ليلا في شهر محرم سنة 132ه/750م، واضطر يزيد بن عمر إلى التراجع نحو مدينة واسط والتحصن بها. أما قحطبة بن شبيب لما أراد عبور نهر الفرات، قرر أنه في حال غيابه أو مقتله، يقود الجيش ابنه حميد بن قحطبة، ثم من بعده ابنه الآخر الحسن بن قحطبة، فلما عبر النهر افتقدوه فلم يعثروا عليه، فاعتبروه مات غرقا في الفرات[3].

---

[1] ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن، المصدر والجزء السابقان، ص 270، 271، 272

[2] نفس المصدر والجزء، ص 275، 276، 277

[3] اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب، المصدر والمجلد السابقان، ص 275، 276، 277

وكان محمد بن عبد الله القسري قد استولى على مدينة الكوفة، وأعلن بيعة بني العباس ولبس السواد، كما استولى سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب على البصرة، وأعلن دعوة بني العباس ولبس السواد، وقد دخل حميد بن قحطبة مدينة الكوفة، في حين أقدم أبو سلمة الخلال على توجيه الحسن بن قحطبة ومالك بن الهيثم إلى حصار يزيد بن عمر بن هبيرة، كما وجه هشام بن إبر اهيم إلى قتال عبد الواحد بن عمر بن هبيرة عامل الأهواز، فانهزم عبد الواحد وهرب إلى البصرة. وفيما يخص، بنو العباس، بعد سجن الإمام إبراهيم بن محمد وموته، هرب إخوته وأهل بيته إلى الكوفة في محرم سنة 132هـ/750م، والتقى أبو العباس وإخوته وأهل بيته مع أبي سلمة الخلال، فعزلهم في دار وأخفى خبرهم عن شيعتهم، وطال مكوثهم قرابة شهرين، حتى علم أبو حميد بأمرهم، حين أخبره غلام لهم، فأخرجهم إلى الناس، وبويع أبي العباس بالخلافة[1].

3_الخلافة العباسية خلال العصر العباسي الأول، "المميزات والصعوبات"

نجحت الدعوة العباسية، وتمت بيعة أبي العباس عبد الله بن محمد بالخلافة يوم الجمعة 13 ربيع الأول سنة 132هـ/750م، فعين عمه داود بن علي في بادئ الأمر على الكوفة، ثم عينه على الحجاز، أما أخوه أبو جعفر المنصور فصرفه إلى أخذ البيعة من خرسان ووواليها أبي مسلم الخرساني. وقد تميزت هذه الفترة بعدة أحداث وتحديات واجهت الخليفة العباسي، منها القضاء على بقايا الأمويين، وملاحقتهم أينما وجدوا، حيث إن أبا العباس كلف عمه داود بن علي بالقضاء على من وجد منهم بمكة، ففعل وقتل منهم جماعة، وجلب منهم جماعة أخرى قتلهم بالطائف، وجماعة أخرى من الأمويين ماتوا في السجن، ولم يكتف بذلك بل لاحق الأمويين بالمدينة المنورة، وفعل بهم ما فعله ببني عمومتهم بمكة، إلا أنه لم يلبث شهرين حتى توفي[2].

وتجدر الإشارة إلى أن أبا العباس أرد قتل وزيره وكبير دعاته أبي سلمة الخلال، وذلك لما بلغه من محاولته نقل الدعوة إلى العلويين أثناء حبسه لهم بالدار، ومنعهم من ملاقاة شيعتهم. بناءً على ذلك، استخدم الحيلة في قتله حتى لا يقولون إن الإمام يقتل دعاته، وقد التمس حقدا في أبي مسلم على أبي سلمة، فأومأ إليه بقتله، فسارع أبو مسلم باستدراج أبي سلمة الخلال وقتله. أما يزيد ابن عمر بن هبيرة، كان الحسن بن قحطبة قد فرض عليه الحصار بمدينة واسط، وبعث إليه الخليفة أبو العباس بأخيه أبي جعفر ليفاوضه، فاتفقا على أن يبايع أبي العباس بالخلافة، وله عهد الأمان، فتم ذلك، لكن العباسيين اتهموه بعد ذلك بالتآمر، ومراسلة عبد الله بن حسن يحرضه على الثورة ويعهده بالنصرة، فقتلوه على حين غرة[3].

وقد كلف أبو العباس عمه عبد الله بن علي بالقضاء على آخر خلفاء بني أمية مروان بن محمد، ثم ألحق به عمه صالح بن علي، وقد فرض عبد الله بن علي الحصار على دمشق ودخلها فاستباحها ونهبها طيلة ثلاثة أيام، وخرب أسوارها، وقتل عاملها الأموي الوليد بن معاوية بن مروان ابن الحكم، وأسر يزيد بن معاوية بن مروان، وعبد الله بن عبد الجبار بن يزيد بن عبد الملك، وبعثهما إلى أبي العباس فقتلهما. فلما دانت له بلاد الشام، وهرب مروان بن محمد إلى

[1] اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب، المصدر والمجلد السابقان، ص 277، 278
[2] نفس المصدر والمجلد، ص 284، 285
[3] اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب، المصدر والمجلد السابقان، ص 286، 287، 288

مصر، عمد عبد الله بن علي إلى الحيلة لإبادة من بقي من الأمويين، حيث ادعى أنه عهد لهم بالأمان والعطايا على شرط الخروج، فنجحت حيلته، وقبض على أكثر من ثمانين رجلا قتلهم جميعا، ثم وجه أخاه صالح بن علي لقتل مروان بن محمد، فأدركه في قرية تسمى بوصير من قرى الصعيد، فقتل مروان بن محمد[1].

وما ميز هذه الفترة، أن العباسيين بالغوا في حقدهم على الأمويين، فلم يكتف بالقتل فقط، بل بلغ الأمر إلى نبش القبور. والغريب في هذه المسألة، أنهم قتلوا حتى من أعطوهم الأمان وقربوهم، ومن السخرية أنهم قتلوا لمجرد نظم شاعر. ونضرب مثلا على ذلك، الخليفة أبو العباس عقد مجلسا حضر فيه سليمان بن هشام بن عبد الملك، فتقدم الشاعر سديف ونظم شعرا أمام الخليفة، على إثر ذلك أمر بقتل سليمان. وفي مجلس آخر، دعا الخليفة أبو العباس نحو سبعين رجلا من بني أمية إلى مجلسه، ولما قدم الطعام لهم، تقدم شاعر بنظم، فأمر بقتلهم جميعا، وجلس فوقهم يأكل الطعام، وبعضهم يئن من الألم حتى ماتوا[2]. يرجح أن أبا العباس، كان دائما ما يلجأ إلى الحيلة لقتل من اعتبره خطرا على حكم بني العباس، فلا يعقل أن يقتل رجالا استضافهم لمجرد قول شاعر، إلا إذا كان قد خطط لذلك مسبقا، والرواية إن صحت، دلت على مدى كراهية وحقد بني العباس على الأمويين.

ويعتبر بني العباس، هم أول من وضع الوزارة على أسسها وقواعدها، وهذا ما ميز هذه الفترة، حيث إن من سبقهم كان يستشير من بمجلسه من الأتباع والحاشية، أما بنو العباس فاستخدموا مصطلح الوزارة واستحدثوا منصب الوزير، فكان أبو سلمة الخلال أول وزير في عهد الخليفة أبي العباس عبد الله، ثم استوزر بعده أبا الجهم بن عطية. وتوفي الخليفة أبو العباس بالأنبار سنة 136هـ/754م[3]، وذلك بعد أن تقلب بين عدة مدن اتخذها عواصما لدولته، حيث إنه نقل العاصمة من الكوفة إلى الهاشمية، ثم انتقل إلى الأنبار وبنى بها مدينة، سميت بهاشمية الأنبار سنة 134ه/752م[4]. يبدو أن السبب وراء ذلك، يعود إلى عدم الأمان والثقة، وكذلك الخوف من غدر سكان الكوفة، ومن كان على شاكلتهم لأنهم من شيعة العلوية. وقد أفادت الروايات باندلاع عدة ثورات في عهده، منها ثورة شريك بن شيخ المهري ببخارى التي تصدى لها أبو مسلم الخرساني، بالإضافة إلى ثورات الأمويين، كثورة أبي محمد السفياني، وثورة محمد بن مسلمة بن عبد الملك[5].

لما اشتد مرض الجدري على أبي العباس عبد الله سنة 136هـ/754م، وعلم أنه يحتضر، كتب ولاية العهد لأخيه أبي جعفر المنصور الذي كان يرأس الحجاج في ذلك العام، ومن بعده عهدها لابن عمه عيسى بن موسى بن محمد؛ فلما مات أبو العباس، بعث عيسى بن علي إلى ابن أخيه أبي جعفر المنصور يبلغه بولاية العهد ويبايعه بالخلافة، وعلى إثر ذلك رجع أبو جعفر

---

[1] ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن، المصدر والجزء السابقان، صر 304، 305

[2] ابن الطقطقا محمد بن علي طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت، دون تاريخ، ص 151، 152

[3] ابن الطقطقا محمد بن علي طباطبا، المصدر السابق، ص 152، 153؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج 5، ص 49

[4] محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص 38

[5] اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب، المصدر والمجلد السابقان، ص 288، 289

المنصور وبايعه الناس بالخلافة[1]. يبدو أن عبد الله بن علي كان طامعا بالخلافة، ويرى نفسه الأحق بها، بسبب ما قدمه من جهود في سبيل القضاء على مروان بن محمد والأمويين. إذ نجد أنه الوحيد من العائلة العباسية الذي لم يبايع، واحتج برواية نسبها إلى أبي العباس تناولها العديد من المؤرخين، منهم المؤرخ اليعقوبي، ومفادها أن أبا العباس قال:" من خرج إلى مروان فهو ولي عهدي". وقد أشهد على ذلك، كبار قواده فبايعوه، وراسل عيسى بن علي بذلك[2].

يبدو أن ولاية العهد كانت سببا في الانقسام، ووقوع الفتن بين أفراد العائلة العباسية، وكذلك قواد الدولة العباسية الناشئة، وذلك بين فريقين أحدهما بايع أبا جعفر المنصور، والآخر لم يكن راضيا على توليه الخلافة. أما الفريق الأول، تمثل في الأمير عبد الله بن علي الذي جمع البيعة بالخلافة لنفسه، ثم زحف من الشام على العراق. والفريق الثاني، تمثل في والي خرسان أبي مسلم الخرساني، الذي لم تجمعه بأبي جعفر المنصور إلا الحقد والكراهية. هذا الرأي استقربناه من النصوص التاريخية[3]. وتجدر الإشارة إلى دهاء الخليفة أبي جعفر المنصور في قتل أعدائه، ومن كان يمثل خطرا عليه، حيث إنه استغل أبا مسلم في القضاء على عمه عبد الله بن علي، ثم استخدم الحيلة في استدراج أبي مسلم إلى مجلسه، وكان قد أمر رجالا من شرطته بالاختباء وقتله بمجرد إعطائهم الإشارة. تم ذلك، وقتل أبو مسلم. وكان أبو جعفر المنصور لما استقبل أبي مسلم في مجلسه، قد عدد له أسباب حقده عليه ورغبته في قتله، وذلك من خلال الحوار الذي دار بينها على النحو الآتي:" قال: فالمال الذي جمعته بخرسان؟ قال أنفقته بالجند تقوية لهم واستصلاحا. قال: ألست الكاتب إليّ تبدأ بنفسك، وتخطب عمتي آمنة ابنة علي، وتزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن عباس؟ لقد ارتقيت، لا أم لك، مرتقىً صعبا. ثم قال: وما الذي دعاك إلى قتل سليمان بن كثير مع أثره في دعوتنا، وهو أحد نقبائنا ..."[4].

ونشير إلى أن أبا مسلم الخرساني، وعبد الله بن علي، لم يشكلا الخطر الوحيد الذي هدد عرش أبي جعفر المنصور، بل شهدت فترة حكمه ثورات أشهرها ثورة العلويين، وعلى رأسها ثورة محمد ذي النفس الزكية وأخيه إبراهيم بن عبد الله الكامل سنة 145هـ/762م، حيث ثار محمد بالمدينة المنورة واستولى عليها، في حين ثار إبراهيم بالبصرة بأمر من أخيه محمد، إلا أنه تأخر في ذلك، بسبب مرض أصابه. ولما أعلن إبراهيم الثورة، قويت شوكته حتى خضع له العراق، وصار يمثل أكبر تهديد على الخلافة العباسية. وما زاد من خطر الثورة، فتوى الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه، التي نصت على إسقاط بيعة أبي جعفر المنصور بحجة أنها بيعة إكراه. وكانت هذه الثورة، تحديا لأبي جعفر المنصور في الحفاظ على ملك بني العباس من خطر العلويين. وفي سياق جهوده للقضاء على هذه الثورة، أتفق مالا كثيرا، ووجه ولي عهده ابن عمه عيسى بن موسى على رأس أربعة آلاف جندي، وأما محمد ذو النفس الزكية لم يبق معه سوى ما قارب ثلاثمئة فقط. وقد استبسل محمد بن عبد الله الكامل في القتال، وأظهر شجاعة وحزم ومهارة في القتال، رغم أنه

---

[1] ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن، المصدر والجزء السابقان، ص 333؛ اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب، المصدر والمجلد السابقان، ص 300

[2] اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب، المصدر والمجلد السابقان، ص 301

[3] ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن، المصدر والجزء السابقان، ص 332، 333؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج 5، ص 48، 49، 51؛ اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب، المصدر والمجلد السابقان، ص 301، 302

[4] ابن الأثير، المصدر السابق، ج 5، ص 53-62

حوصر من قبل الكثير من الرجال، لم يستسلم حتى قتل على يد حميد بن قحطبة، وذلك بعد أن أثخن بالجراح والطعنات في شهر رمضان[1]. أما أخوه إبراهيم بن عبد الله الكامل، فقد تأخر في إعلان الثورة، لكن دان له أهل فارس والأهواز بالولاء، وتمكن من السيطرة على العراق، وكثر أتباعه، فهابه أبو جعفر المنصور وخاف منه، وبعث إليه عيسى بن موسى وبرفقته حميد بن قحطبة، فاستطاع الجيش العباسي بعد مشقة عظيمة من إلحاق الهزيمة بجيش إبراهيم بن عبد الله، الذي قتل بسبب سهم أصابه في حنجرته في شهر ذي القعدة من نفس السنة[2].

ويبدو أن ولاية العهد دوما ما كانت أهم ما ميز فترة حكم بني العباس، حيث إن أبا جعفر المنصور، أراد خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد، وتعيين بدلا منه ابنه محمد المهدي، وفي سبيل ذلك استخدم كافة الوسائل والأساليب، من بينها التهديد والتخويف والإذلال، وبلغ الأمر إلى تحريض الجند على الاستهانة به والضحك عليه، وأظهر أنه يريد قتل ابنه موسى بن عيسى أمام عينيه. هذه الأساليب الخبيثة، هي ما دفعت عيسى بن موسى لمبايعة المهدي محمد بن أبي جعفر المنصور، ومن بعده لابنه موسى بن عيسى، وذلك حسب رواية ابن الأثير والبلاذري وغيرهما[3]. أما العلامة ابن خلدون فذكر ما ذكره ابن الأثير والمؤرخون، وأشار إلى عزل عيسى بن موسى من ولاية الكوفة، واضطرار عيسى بن موسى التسليم لرغبة أبي جعفر المنصور، فتمت البيعة لولي العهد محمد المهدي، ثم من بعده تعود له ولاية العهد، أي لعيسى بن موسى، إلا أن العلامة ابن خلدون شكك في صحة الأساليب التي نسبت إلى أبي جعفر المنصور، وأكد على عدالته وشيم أخلاقه[4].

وكان أهم ما ميز هذه الفترة، بناء مدينة بغداد عاصمة الخلافة، وحاضرة الحكمة والعلم والمعرفة، حيث إن المصادر أشارت إلى رغبة أبي جعفر في إيجاد مكان، يكون مناسبا لبناء عاصمة ملكه. ويرجح أن يكون هذا الهدف، ما هو إلا استمرار ما بدأه الخليفة أبو العباس، والذي أشرنا إليه سابقا، والذي لم يتوقف عن نقل العاصمة من مكان إلى آخر حتى توفي، إلا أننا نلاحظ أن الخليفة أبا جعفر قد وفق في ذلك، ووجد المكان المناسب أمنيا، وسياسيا، واقتصاديا، بعيدا أن خطر الشيعة العلوية. وقد أفادت الروايات، بإقدام الخليفة أبي جعفر على بناء مدينة الهاشمية والإقامة بها، إلا أنه قرر بناء مدينة أخرى تكون عاصمة للخلافة العباسية، وذلك لسببين. السبب الأول، كره سكانها الإقامة بها بعد حادثة الروانديه. والسبب الثاني، قرب الهاشمية من الكوفة، التي شكلت هاجسا أمنيا لدى أبي جعفر، الذي كره الإقامة بجوار الشيعة العلوية الذين صاروا يفسدون عليه جنده، فكان القرار البحث عن موقع ملائم لبناء حاضرة الخلافة. ونقول بهذا الخصوص، إن الروايات كثيرة، لا يمكن ذكرها في هذا المقام، إلا أننا نشير إلى أنه أنشأها سنة 145 هـ/ 762م، في موضع وصفه بقوله:" هذا موضع صالح، وهذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيء، يأتينا فيها كل ما في البحر، وتأتينا الميرة من الجزيرة وأرمينية وما حول ذلك، وهذه الفرات يجيء فيها كل

---

[1] ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 8، ص 63-68؛ الطبري، المصدر والجزء السابقان، ص 552-594

[2] ابن الأثير، المصدر السابق، ج 5، ص 138-142

[3] البلاذري أحمد بن يحي، جمل من أنساب الأشراف، ج 4، تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي، ط 1، دار الفكر، بيروت، 1996، ص 341-344؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج 5، ص 149-151

[4] ابن خلدون عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج 3، دار الفكر، بيروت، 2000، ص 248

شيء بالشام والرّقة ..."[1]. ولا بد من الإشارة إلى أن الخليفة أبا جعفر المنصور، حين تولى الخلافة استوز أبا أيوب المورياني، ثم الربيع بن يونس[2]، وكان صاحب الشرطة المسيب بن زهير، فعزله وحبسه سنة 168هـ/785م، وعين الحكم بن يوسف، ثم عفا عنه وأعاده إلى منصبه[3].

وقد واجه أبو جعفر بعض التحديات الأخرى، مثل ثورة الروانديّة، وهم من خرسان من أتباع أبي مسلم الخرساني، وقد فسدت عقيدتهم، حيث إنهم كانوا يؤمنون بالتناسخ والحلول. وقالوا: إن روح آدم حلت في عثمان بن نهيك، والله عز وجل حل في أبي جعفر المنصور، وجبريل حل في الهيثم بن معاوية. وكان الخليفة أبو جعفر المنصور أمر بسجن بعضهم، إلا أنهم ثاروا وأخرجوا أصحابهم من السجن، وبلغ عددهم حوالي ستمائة، وصاروا إلى قصر الخليفة، فانتدب لقالهم جماعة منهم معن بن زائدة الشيباني، وخازم بن خزيمة، والهيثم بن شعبة. ثم خرج الناس وقاتلوهم حتى قضوا عليهم[4]. أما ثورة سنفاد المجوسي، سببها ادعاء سنفاد المجوسي أنه ولي أبي مسلم الخرساني والطالب بثأره، ولما ثار استولى على الري وبلاد ما وراء النهر، ووزع خزائن أبي مسلم، فقويت شوكته وبلغ أتباعه ما يقارب تسعين ألفا، فندب الخليفة المنصور لقتاله القائد جمهور العجلي على رأس جيش قوامه عشرة آلاف، فدارت معركة بين الفريقين في موضع بين همذان والرّي، انتهت بانتصار جيش الخلافة وقتل ما يقارب ستين ألفا فيهم سنفاد المجوسي، بالإضافة إلى سبي نسائهم وأولادهم[5]. وفي سنة 147هـ/764م، أقدم أسترخان الخوارزمي على رأس الترك بالإغارة على المسلمين ناحية أرمينية فقتلوا وسبوا من المسلمين وأهل الذمة على حد سواء واستولوا على تفليس. فلما بلغ الخبر الخليفة المنصور، بعث جيشا بقيادة جبرائيل بن يحي، وأمر حرب بن عبد الله الذي كان مرابطا بالجزيرة لقتال الخوارج، أن يمضي بجيشه لدعم جبرائيل بن يحي في قتال الترك، إلا أن الجيش العباسي انهزم، وقتل حرب بن عبد الله وكثير من الجند العباسي[6].

وفي سنة 148ه/765م، ثار الخوارج بقيادة حسَّان بن مجالد، وانتفض أهل الموصل، وفشل الجيش العباسي في إخماد الثورة وفساد الخوارج، فبعث الخليفة المنصور خالد بن برمك واليا على الموصل، وقد تمكن من إخماد ثورة الخوارج، وإصلاح أوضاع سكان الموصل وفرض الأمن[7]. وفي سنة 150هـ/767م، ثار أستاذ سيس على رأس ثلاثمائة مقاتل، وحسب بعض الروايات أنه ادعى النبوة، وأظهر الفسق، وقطع السبيل. وكان قد استولى على معظم خرسان، فأخذ هراة، وبادغيس، وسجستان. فلما عظم أمره، وبلغ الخليفة المنصور انهزام كبار قادة جيشه، بعث جيشا بقيادة خازم بن خزيمة إلى ابنه محمد المهدي، الذي ضم إليه باقي القواد والجيش الذي انهزم، وأمره بحرب أستاذ سيس، فدارت بين الفريقين عدة معارك، انتهت بانتصار الجيش العباسي،

---

[1] ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 8، ص 69؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج 5، ص 132، 133؛ ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر والجزء السابقان، ص 247

[2] ابن الطقطقا محمد بن علي طباطبا، المصدر السابق، ص 175، 177

[3] ابن الأثير، المصدر السابق، ج 5، ص 207

[4] البلخي أبو زيد أحمد، المصدر والجزء السابقان، ص 281؛ ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر والجزء السابقان، ص 233، 234

[5] البلخي أبو زيد أحمد، المصدر والجزء السابقان، ص 280؛ علي عبد الرحمن العمرو، أثر الفرس السياسي في العصر العباسي الأول، ط 1، مكتبة المهتدين الإسلامية، 1979، ص 381، 382

[6] ابن الأثير، المصدر السابق، ج 5، ص 149

[7] نفسه، ص 155، 156

ومقتل سبعين ألفا، وأسر أربعة عشر ألفا من جيش أستاذ سيس، الذي لجأ إلى الجبل، وأمر خازم بقتل الأسرى، واضطر أستاذ سيس للاستسلام سنة 151هـ/768م[1].

وفي شهر ذي الحجة سنة 158ه/775م، توفي الخليفة أبو جعفر المنصور وخلفه ابنه محمد المهدي، حيث إنه اهتم بمؤسسات الدولة وتعيين الولاة، حيث تولى الوزارة كل من معاوية ابن عبد الله المعروف بأبي عبيد الله الأشعريين، ثم يعقوب بن داود، ثم محمد بن الليث، وعلي بن يقطين، والحسن بن راشد. وكان حاجبه الربيع، وصاحب الشرطة نصر بن مالك، ثم وليها حمزة بن مالك، ثم عبد الله بن مالك، وولى محمد بن إبراهيم على حرسه، ثم عزله وولى مكانه أبا العباس الطوسي[2]. وقد واجه خطر الثورات وحركات سياسية واجتماعية مناهضة لحكم بني العباس، ومنها نذكر ثورة المقنع، واسمه هاشم أو حكيم، وهو من سكان مرو بخرسان. كان المقنع يؤمن بعقيدة تناسخ الأرواح والحلول، فقال:" إن الله خلق آدم فتحول إلى صورته ثم في صورة نوح ثم إلى أبي مسلم ثم إلى هاشم". ويقصد بهاشم نفسه، كما ادعى الألوهية. وكان قد أعلن الثورة بخرسان، وعقد حلفا مع المُبيّضة الذين ثاروا ببلاد الصغد وبخارى، وساندهم كفار الأتراك، وهاجموا المسلمين، ورغم المعارك التي خاضها الجيش العباسي في تلك الولاية، إلا أنه انهزم، ما دفع الخليفة المهدي إلى بعث جيش بقيادة جبريل بن يحي وأخيه يزيد ووجهه لقتال المبيضة، فقتلوا منهم سبعمائة، وفر من نجى منهم، وانضموا إلى جيش المقنع. وكان الخليفة المهدي، قد بعث جيشا آخر بقيادة أبي عون لقتال المقنع، ولما بلغه أنه غير حازم في قتاله، بعث جيشا وبعض القادة على رأسهم معاذ بن مسلم، ودارت معركة بين الفريقين بموضع يقال له الطواويس، فانتصر الجيش العباسي، وتحصن المقنع بقلعة بسَّام. فلما اشتد الحصار استسلم حوالي ثلاثين ألفا من جنده بعد حصولهم على الأمان، وبقي معه ألفان، ولما أيقن بالهزيمة أقدم على حرق نفسه وأهله بالنار، وأشارت روايات أخرى إلى أنه أنهى حياته بالسم[3]. هذا بالإضافة إلى الزنادقة، وثورة يوسف البرم الذي ادعى النبوة، وثورة المحمرة بخرسان، إلا أن الخليفة المهدي تمكن من القضاء عليهم جميعا[4]. أما فيما يخص، العلاقات مع البيزنطيين، فقد نقضوا الصلح سنة 168هـ/785م، إلا أن علي بن سليمان عامل الجزيرة وقنسرين بعث جيشا فهزمهم وغنم وردهم عن الثغور[5]. وقد توفي الخليفة المهدي سنة 169هـ/786م[6].

نشير مرة أخرى إلى مسألة ميزت العصر العباسي الأول، ألا وهي ولاية العهد، وهنا نذكر أن الخليفة أبا جعفر المنصور أزاح عيسى بن موسى عن ولاية العهد بالتهديد والترهيب، وجعله من بعد ابنه المهدي. فلما بايع الناس المهدي بالخلافة رفض عيسى بن موسى مبايعته لأنه أكره على التنازل عن حقه في ولاية العهد، إلا أن محمد المهدي وأنصاره في مسألة البيعة بالخلافة، كانوا أكثر حزما في هذه المسألة الخطيرة، حيث سارع علي بن عيسى بن ماهان إلى رفع السيف وتهديد عيسى بن موسى ودفعه إلى مبايعة محمد المهدي بالخلافة، لما رأى اختلاف القادة

[1] ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 8، ص 122؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج 5، ص 162، 163
[2] اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب، المصدر والمجلد السابقان، ص 344، 345
[3] ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر والجزء السابقان، ص 256، 257، 259، 260
[4] البلخي أبو زيد أحمد، المصدر والجزء السابقان، ص 288، 289
[5] ابن الأثير، المصدر السابق، ج 5، ص 250
[6] ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 8، ص 304

واضطراب موقفهم من البيعة[1]. وفيما يخص عقد الخليفة محمد المهدي ولاية العهد لابنه موسى الهادي، فقد انتهج نفس أسلوب أبيه المنصور، حيث إن الخليفة محمد المهدي لجأ إلى أسلوب التهديد والترهيب، وكذلك أسلوب الترغيب في آن واحد سنة 160هـ/777م، واضطر عيسى بن موسى مرة أخرى التنازل عن حقه في ولاية العهد، لكن هذه المرة خلع نهائيا، حيث إنه خلع نفسه، وبايع موسى الهادي بولاية العهد[2]. وقد توفي عيسى بن موسى سنة 167هـ/784م[3]. وكان الخليفة محمد المهدي حين عقد ولاية العهد لابنه موسى الهادي، عقد من بعده لابنه الآخر هارون الرشيد، إلا أنه أراد فيما بعد أن يقدم الرشيد على الهادي، لكنه وافته المنية وذلك سنة 169هـ/786م[4].

لما ولي موسى الهادي الخلافة عين الربيع وزيرا له بدلا من عبيد الله بن زياد بن أبي ليلى، وولى الفضل بن الربيع منصب الحجابة، وولى علي بن يقطين على الخاتم. وقد سار الخليفة الهادي على سيرة أبيه في القضاء على الزنادقة[5]، كما أنه ولى عبد الله بن خازم التميمي على الشرطة، ثم عزله وولى عليها عبد الله بن مالك الخزاعي، وولى على حرسه علي بن عيسى بن ماهان[6]. وقد واجه العديد من الصعوبات، المتمثلة في الثورات والحركات السياسية والاجتماعية، نذكر منها: ثورة العلويين بقيادة الحُسين بن علي بالمدينة المنورة سنة 169هـ/786م، الذي تمكن من الاستيلاء عليها وطرد عاملها، ثم بعد ذلك اتجه إلى مكة؛ فلما بلغ الخبر إلى الخليفة الهادي كلف محمد بن سليمان بقتالهم، حيث دارت معركة غير متكافئة بين الفريقين في موضع يقال له فخ بالقرب من مكة، قتل على إثرها الحسين بن علي ومعظم من كان معه من العلويين[7]. وفي هذه السنة، ثار الخوارج بزعامة حمزة بن مالك الخزاعي بالجزيرة، وتمكن من هزيمة الجيش العباسي، وعظم أمره، إلا أنته اغتيل على يدي رجلين من أصحابه[8].

قد ذكرنا أن ولاية العهد أهم ما ميز هذه الفترة، حيث إن الخليفة موسى الهادي مضى على سيرة أبائه في خلع ولي العهد، وقد حظي بتأييد قواد الدولة وخاصة مجلسه في خلع أخيه هارون الرشيد، وتعيين ابنه جعفر بدلا منه، لكن هارون الرشيد امتنع عن ذلك، وأشار عليه يحي بن خالد البرمكي أن يطلب الإذن من أخيه الخليفة الهادي للخروج إلى الصيد، ثم يمتنع عن العودة؛ فلما أذن له بذلك الخليفة الهادي، لجأ إلى قصر بني مقاتل، وبقي حوالي أربعين يوما؛ فلما طال مقام هارون الرشيد، أمر الخليفة الهادي قواده وخاصته بالبحث عنه وجلبه إليه. وكان يحي بن خالد البرمكي، قد أشار على الخليفة الهادي، أنه ليس من الصواب، إبطال بيعة ولاية العهد التي عقدها الخليفة المهدي وبايعه الناس عليها، كما أن ابنه ما يزال صغيرا، ومن الحكمة عقد البيعة له بعد هارون

---

[1] هدى أحمد العيسى، قضية ولاية العهد منذ تأسيس الدولة العباسية حتى وفاة الخليفة المتوكل (247-132هـ/750-861م)، رسالة أعدت لنيل درجة الماجستير في تاريخ العرب والإسلام، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ، جامعة دمشق، 1427هـ/2006م، ص 65

[2] ابن الطقطقا محمد بن علي طباطبا، المصدر السابق، ص 180؛ أحمد شهاب أحمد وغازي فيصل صالح:" أثر ولاية العهد على الحكم في العصر العباسي (656-132هـ/750-1258م)"، **مجلة المدارات العلمية للعلوم الإنسانية والاجتماعية**، م 2، ع 2، 2024، ص 460

[3] اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب، المصدر والمجلد السابقان، ص 342

[4] ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 8، ص 304

[5] نفسه، ص 306، 307

[6] اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب، المصدر والمجلد السابقان، ص 351

[7] ابن الأثير، المصدر السابق، ج 5، ص 260، 261؛ البلخي أبو زيد أحمد، المصدر والجزء السابقان، ص 290

[8] ابن الأثير، المصدر السابق، ج 5، ص 264

الرشيد، وذلك إلى حين بلوغه، وفي هذه الحال يمكنه خلع هارون الرشيد من ولاية العهد، ويجعلها في ابنه[1]. وفي رواية أخرى، أقدم يحي بن خالد البرمكي على وضع هارون الرشيد في مخبئ سري، ولما شك فيه الخليفة الهادي وضعه في السجن، وحين مات الخليفة الهادي، سارعت الخيزران إلى إطلاق سراحه، فمضى إلى إخراج هارون الرشيد من مخبئه ومبايعته بالخلافة[2]

الأمر المثير للاهتمام، ليس إصرار الخليفة الهادي على خلع أخيه من ولاية العهد، إنما سبب وفاته في سنة 170هـ/787م، التي اختلفت الروايات فيها، حيث أرجعت بعض الروايات سبب وفاته إلى إصابته بقرحة في جوفه مات على إثرها، وأشارت روايات أخرى، إلى مرض أصابه حين كان بحديقة الموصل. واللاَّفت، أن بعض الروايات أرجعت سبب وفاته إلى سم دسته إليه جارية من جواري أمه الخيزران، حيث إن الخيزران كان لها نفوذ كبير في الدولة، مكنها من قضاء حوائج ومصالح من يلجأ إليها في عهد زوجها الخليفة المهدي، إلا أن ابنها الخليفة الهادي منعها من ذلك، وأمرها بالبقاء بالبيت وعدم التدخل في شؤون السلطة، وهدد القواد ورجال الدولة بالقتل ومصادرة أموالهم إن طرق أحدهم بابها، فاشتد غضبها ودبرت له عملية الاغتيال. وقيل أيضا، إنها خافت على ابنها هارون الرشيد من أخيه، فانتهزت فرصة مرضه، وأمرت إحدى جواريها، فجلست على وجهه فقتلته[3]. أما فيما يخص، العلاقات مع الإمبراطورية البيزنطية، فقد شهدت توترا سنة 169خـ/786م، حين غزا الجيش البيزنطي بلدة الحَدَث فاستولى عليها، فأمر الخليفة الهادي بالغزو في الصائفة، حيث تمكن الجيش العباسي بقيادة معيوف من دخول مدينة أشنة، فغنم وسبى[4].

وفيما يتعلق بفترة حكم الخليفة هارون الرشيد، فقد تميزت خلافته في بادئ الأمر بسيطرة البرامكة على زمام الدولة ومقاليد السلطة والحكم، حيث جمعت الخيزران أم الخليفة علاقة قوية مع يحي البرمكي وأولاده، وكانت لها تأثير قوي على ابنها الخليفة، كما أن الخليفة هارون الرشيد نشأ وترعرع في بيت يحي بن خالد البرمكي، وتولت رضاعته زوجته، فكان أخ الفضل بن يحي البرمكي من الرضاعة، حيث إن الفضل كذلك أرضعته الخيزران أم الرشيد، وصار أبناء يحي إخوته، كما أن يحي كان له الفضل على هارون الرشيد في إنقاذه من أخيه وتوليه الخلافة، فكانت هذه الأسباب مجتمعة دافعا لبسط البرامكة نفوذهم على الخلافة. وفي هذا السياق، ذكر اليعقوبي أن الخيزران بمجرد وفاة ابنها الخليفة الهادي، سارعت إلى السجن وأخرجت يحي البرمكي، الذي قال:" فمضيت إلى هارون حتى أخرجته من الموضع الذي كان فيه محبوسا، فأصبح القّواد، فبايعوا، وأصبحت أدبر الملك"[5].

وقد تولى يحي بن خالد البرمكي الوزارتين، وزارة التنفيذ ووزارة الأختام، وكان يأتمر بأمر الخيزران، ولما ماتت سنة 173هـ/790م، استفرد بالدولة، وتولى أولاده جعفر والفضل ومحمد المناصب الرفيعة في الدولة، ولم يظفر موسى بمنزلة إخوته. وكان الخليفة الرشيد، قد

---

[1] ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر والجزء السابقان، ص 271، 272؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج 5، ص 265، 266

[2] اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب، المصدر والمجلد السابقان، ص 351

[3] ابن الأثير، المصدر السابق، ج 5، ص 267، 268؛ ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر والجزء السابقان، ص 272

[4] ابن الأثير، المصدر السابق، ج 5، ص 263

[5] اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب، المصدر والمجلد السابقان، ص 351

استوزر كلا من الفضل وجعفر، كما أنه ولى جعفر بن يحي في فترات مختلفة على مصر، وخرسان، والشام والجزيرة، وأولاه كفالة وتأديب ابنه المأمون، وأولاه أيضا الخاتم. ثم ولى أيضا الفضل بن يحي على مصر، وخرسان، وأولاه كفالة وتأديب ابنه الأمين[1]. وكان الخليفة هارون الرشيد استأنف غزو البيزنطيين فيما يعرف بالصائفة والشاتية، وعمل على دعم وتقوية الثغور في مواجهة البيزنطيين. ومن ذلك، أنه جمع بين الجزيرة وقنسرين وسماها العواصم، وأمر ببناء مدينة طرسوس وإعمارها بالناس سنة 170هـ/787م[2].

وتعد نكبة البرامكة وولاية العهد، أهم الأحداث التي شهدتها فترة حكم الخليفة هارون الرشيد. ولا بد من الإحاطة بأحداث النكبة وأسبابها التي وقعت سنة 186هـ/803م، ومفادها أن الخليفة الرشيد قتل جعفر بن يحي وأمر بوضع يحي بن خالد البرمكي وأولاده في السجن ومصادرة جميع أموالهم وممتلكاتهم، فمات يحي بالسجن سنة 190هـ/806م، وكذلك ابنه الفضل في السجن سنة 193هـ/809م. وقد تعددت الأسباب باختلاف الروايات وكثرة الأقوال والآراء، بعضها نعتبره منطقيا، وبعضها الآخر يبدو لنا مختلقا لا صحة له، وضع نكاية في الخليفة هارون الرشيد من قبل معارضيه. انطلاقا من ذلك، نذكر من الأسباب ما يلي:

_ تعاظم نفوذ البرامكة واستحواذهم على زمام الحكم والسلطة، وتقويض سلطة الخليفة، حتى بلغ الأمر أن صار يحي بن خالد البرمكي يدخل على الخليفة الرشيد دون إذن
_ مجالس البرامكة فاقت مجالس الخليفة منزلة وشهرة، وكثر إقبال الأدباء والشعراء عليها، وكان ما ينفق فيها من مال، أكثر مما كان ينفقه الخليفة بمجالسه
_ اتهام البرامكة بالفساد ونهب أموال الدولة والعامة، وذلك بسبب امتلاكهم ثروة طائلة شملت الأموال الكثيرة والضياع والبساتين
_ اتهام البرامكة بالزندقة والإلحاد، ومحاولة إحياء التراث الفارسي المجوسي، حيث اتهمهم جماعة من الناس، منهم محمد بن الليث في رسالة بعثها إلى الخليفة الرشيد
_ إقدام زبيدة زوجة الخليفة، والحاجب الفضل بن الربيع –الذي ولي الوزارة بعد نكبة البرامكة-على تشويه سمعة البرامكة، وتحريض الخليفة هارون الرشيد لاستئصالهم
_ رواية غريبة شاذة موضوعة بعيدة عن الصحة، تمثلت في قصة العباسة أخت هارون الرشيد، الذي عقد قرانها صوريا فقط على جعفر بن يحي البرمكي، حتى يمكنها من حضور مجلس السمر، وأخذ عهدا من جعفر ألا يطأها أو يلمسها، لكن جعفر بن يحي خالف أمر الخليفة ووطأها فحملت منه، فأقسم على قتله ونكبة البرامكة، ثم وضع العباسة في صندوق ورماها في بئر، وهي حية، وألحق بها ولديها التوأمين اللذين أنجبتهما من جعفر، وقيل أنجبت منه غلاما، وأمر بردم البئر

[1] ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر والجزء السابقان، ص 280؛ البلخي أبو زيد أحمد، المصدر والجزء السابقان، ص 292؛ اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب، المصدر والمجلد السابقان، ص 356؛ ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 8، ص 321؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج 5، ص 274

[2] ابن الأثير، المصدر السابق، ج 5، ص 275

_ عصيان جعفر بن يحي البرمكي أوامر الخليفة هارون الرشيد، مثلما حدث في مسألة يحي بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، والتي استغلها الفضل بن الربيع لتحريض الخليفة على جعفر[1].

_ رواية أخرى غريبة وشاذة لا صحة لها، ذكرها ابن الجوزي، مفادها أن جعفر بن يحي كان قد اشترى جارية حسناء وجميلة اسمها "فتينة"، تحسن الغناء والطرب، فطلبها هارون الرشيد من جعفر فرفض، فحقد عليه، ولأجل ذلك قتله ونكب بالبرامكة[2].

أما فيما يخص ولاية العهد، كانت دوما حاضرة في العصر العباسي الأول، ونلاحظ أثرها في ظروف نكبة البرامكة، حين اتخذت زبيدة زوجة الخليفة موقفا عدائيا ضد البرامكة، بسبب تأثيرهم القوي في عقد ولاية العهد للمأمون، مما دفعها لتحريض الخليفة والسعي للقضاء عليهم. وما يثير الاهتمام، أن ولاية العهد كانت سببا مباشرا في تأجيج الفتنة بين الأمين والمأمون بعد وفاة الخليفة هارون الرشيد. وقد كان الخليفة هارون الرشيد، عقد ولاية العهد لابنه محمد الأمين سنة 175هـ/792م، وذلك بتأثير من زوجته زبيدة وأعيان بني العباس وبني هاشم، ثم عقد ولاية العهد لابنه المأمون والقاسم سنة 186هـ/803م، وذلك في موسم الحج، حيث أشهد الناس على بيعة ولاية العهد لابنه الأمين، ومن بعده المأمون، ثم من بعدهما لابنه القاسم

وتعد الحرب التي دارت بين الأخوين الأمين والمأمون، من أشد الأزمات التي واجهت الخلافة العباسية خلال العصر العباسي الأول، وترجع أسباب الفتنة بين الأخوين إلى ما يلي:

_ سياسة الخليفة هارون الرشيد التي زرعت بذور الخلاف والفتنة بين الأخوين، وذلك حين عقد ولاية العهد لأبنائه الثلاثة، وأشهد عليهم الفقهاء والأعيان والناس في موسم الحج سنة 186هـ/803م. وفي الوقت ذاته، قيَّد سلطة ابنه الأمين عند توليه الخلافة، حيث أقطع لابنه المأمون خرسان، وأخرجها من سلطة الخليفة، فلم يعد المأمون واليا عليها فحسب، بل حاكما يفرض سلطته السياسية والعسكرية والمالية، ولا يحق للخليفة التدخل في شؤونها، والأمر ذاته بالنسبة للجزيرة التي أقطعها لابنه القاسم

_ دور الوزراء في إشعال نار الفتنة بين الأخوين، الفضل بن الربيع وزير الخليفة الأمين، والفضل بن سهل وزير المأمون

_ زبيدة أم الخليفة الأمين، التي كانت تطمح إلى أن يفرض ابنها سلطته الكاملة على جميع ولايات الخلافة وتبقى الخلافة في نسلها، سعت إلى خلع المأمون من ولاية العهد وعقدها لحفيدها ابن الخليفة الأمين، كما أن بني العباس والهاشميين كان لهم دور في التأثير على الخليفة الأمين، وذلك لإبعاد المأمون من ولاية العهد، بسبب أنه من أمة فارسية

---

[1] الطبري، المصدر السابق، ج 8- ص 287-294؛ ابن الطقطقا محمد بن علي طباطبا، المصدر السابق، ص 208، ،209، 210؛ ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر والجزء السابقان، ص 279، 280، 281؛ ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 9، ص 126، 127، 128، 129؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج 5، ص 347، 348، 349، 350، 351، 352، 353؛ البلخي أبو زيد أحمد، المصدر والجزء السابقان، ص 292، 293؛ اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب، المصدر والمجلد السابقان، ص 369، 370؛ جرجي زيدان، الأمين والمأمون، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2011، ص 142

[2] ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 9، ص 130

_ إقدام الخليفة الأمين على خلع المأمون من ولاية العهد، ونزع ولاية الجزيرة من أخيه القاسم

_ إقدام المأمون على إسقاط الدعاء للخليفة الأمين من منابر المساجد والدعاء لنفسه، وقطع عنه البريد، وأسقط اسمه في ضرب الدنانير والدراهم[1].

وقد بدأ التوتر بين الأخوين، حين أبدى الخليفة الأمين رغبة في البيعة لابنه موسى بولاية العهد، فقوبل برفض وإصرار من المأمون، الأمر الذي تطور إلى مطالبة الخليفة الأمين من المأمون بالتخلي عن أقاليم تابعة لولاية خرسان، ثم تبادل الطرفان الرسائل، وأقدم الخليفة الأمين على خلع القاسم من ولاية الجزيرة، والمباشرة في خلع أخيه المأمون من ولاية العهد، وجمع البيعة لابنه موسى سنة 195هـ/811م. وفي المقابل، قام المأمون بإسقاط اسم الخليفة وعدم الدعاء له من على المنابر، والدعاء لنفسه بالإمامة، وقطع البريد عن بغداد، وأسقط اسم الخليفة من ضرب السكة. وتعد هذه الأحداث، سببا في إقدام كلا من الأخوين على التعبئة والاستعداد للحرب، حيث بعث الخليفة الأمين في هذه السنة جيشا بقيادة علي بن موسى بن ماهان، والذي واجه جيش خرسان بقيادة طاهر بن الحسين وهرثمة بن الأعين، ودارت معركة بالرَّي، انتهت بانهزام جيش الأمين ومقتل قائده علي بن موسى[2].

بعث الخليفة الأمين جيشا آخر بقيادة عبد الرحمن بن جبلة الأنباري، ولما بلغ مدينة همذان، دارت معركة بين الجيشين انتهت بانتصار طاهر بن الحسين، واضطر ابن جبلة إلى التحصن بالمدينة، ثم جرت مفاوضات بين الطرفين انتهت بحصول ابن جبلة على الأمان، إلا أن الأمر لم يدم طويلا، واشتبك الجيشان مرة أخرى انتصر فيها طاهر بن الحسين وقتل عبد الرحمن بن جبلة، وتفرق جيشه، ومنهم من انضم إلى جيش آخر بعثه الخليفة الأمين بقيادة الأخوين عبد الله وأحمد ابني الحرشي، إلا أن هذا الجيش انهزم أمام جيش المأمون بقيادة طاهر بن الحسين، الذي زحف بعد هذه الانتصارات على العراق. أما المأمون، فقد لقب نفسه بأمير المؤمنين، وأمر أن يذكر اسمه على المنابر[3].

ويبدو أن سلسلة الانتصارات التي حققها جيشه، والذي دخل العراق، بعث فيه الطمأنينة والأمان، مما جعله يسارع إلى اعتلاء عرش الخلافة حتى قبل أن تصله أخبار الاستيلاء على بغداد ومقتل أخيه الخليفة الأمين، وينم ذلك على أن الطمع في الاستحواذ على الخلافة بكافة أركانها وأقاليمها، لم يكن حصرا على الخليفة الأمين، بل كذلك أخيه المأمون وإن لم يظهر ذلك في بادئ الأمر.

---

[1] الطبري، المصدر السابق، ج 8- ص 275، 276، 277، 278، 279، 280، 281، 374، 375، 389، 390؛ محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص 113، 114، 115- 116؛ سعد بن عيسى المزيني، "أمهات الخلفاء العباسيين وأثرهن على ولاية العهد (334-132هـ/750-945م) دراسة تاريخية "، **المجلة الدولية للعلوم الإنسانية والاجتماعية**، ع 57، ماي 2024، ص 10؛ جرجي زيدان، المرجع السابق، ص 147، 158

[2] ابن مسكويه أحمد بن محمد، العيون والحدائق في أخبار الحقائق، ج 3، مكتبة المثنى، بغداد، 1964، ص 323، 324، 325؛ الطبري، المصدر السابق، ج 8- ص 389-395؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج 5، ص 411-416؛ ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر والجزء السابقان، ص 292، 293؛ محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص 119

[3] ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر والجزء السابقان، ص 293، 294

لا بد من القول، إن الأسباب تضافرت في وقوع الهزائم بجيش الأمين وانتهاء الصراع بمقتله، حيث إن الأسباب لم تقتصر على سوء إدارة الحرب، أو اعتبار جيش المأمون من أهل تلك البلاد يعرفونها كما يعرفون أنفسهم، أو اعتماد المأمون ووزيره وحاشيته الدعاية لتشويه سمعة الخليفة الأمين وتسويق الشائعات على أنه فاسق، مما جعل الكثير من الناس يعلنون ولائهم للمأمون، بل هناك حدث آخر أشار إليه المؤرخون أمثال ابن خلدون، وهو ثورة علي السفياني، وأنصار بني أمية ببلاد الشام سنة 195هـ/811م، أي أنها تزامنت مع الحرب بين الأخوين واستمرت إلى غاية سنة 198هـ/814م، وقد شغلت الخليفة الأمين في الوقت الذي كان يمر بظروف صعبة في صراعه مع أخيه المأمون[1]. علاوة على ذلك، ذكر المؤرخون أمثال المؤرخ البلخي، انقلاب الجيش على الخليفة الأمين، حيث إنهم خلعوه من الخلافة وحبسوه مع أهله في قصره مدة يومين، ثم أخرجوه وبايعوه. كل هذه الأحداث والاضطرابات، وقعت في الوقت الذي كان فيه جيش المأمون يغزو العراق[2].

نعود إلى الحديث عن حملة الجيش بقيادة طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين على العراق، حيث إن طاهر بن الحسين لما ظفر بانتصارات متتالية، وأنهى نفوذ الخليفة الأمين بالشرق، زحف يريد بغداد والقضاء على الخليفة، حيث اتجه جيش بقيادة هرثمة بن أعين واستولى على حلوان، واتجه طاهر بن الحسين واستولى على الأهواز ثم واسط، وكذلك المدائن. وكانت الأمصار تعلن خلع الأمين ومبايعة المأمون بالخلافة، مثلما حدث بالحجاز واليمن وغيرهما، وذلك ابتداءً من سنة 196هـ/812م. وقد تمكن جيش المأمون من فرض الحصار على بغداد ما يقارب سنة، أنهك خلالها جيش الأمين ونفذت منه الأموال، وكثر الشغب في المدينة. وكان هرثمة بن أعين على اتصال مع الخليفة الأمين، وأعطاه الأمان على أن يسلم نفسه، فاتفقا على ذلك، وركب الأمين المركب مع هرثمة، إلا أن طاهر بن الحسين تفطن لذلك، فرما المركب بالنفط والحجارة، واستطاع هرثمة السباحة واللجوء إلى إحدى المراكب، أما الخليفة الأمين فسبح حتى بلغ شط البصرة، لكن عثر عليه وقتل، وبعث طاهر بن الحسين برأسه إلى المأمون في محرم سنة 198هـ/814م[3].

ولي المأمون الخلافة، ووجه أنظاره إلى فرض الأمن والاستقرار، وإصلاح أحوال الرعية والنهوض بالعمارة، وتشجيع طلب العلم واحتضان العلماء في جميع أصناف المعرفة والفنون. ويبدو أن خلافة المأمون تميزت بنهضة علمية لم يشهدها العالم الإسلامي قبل عهده، وعلو مقام المعتزلة في مجلسه، ما ميز هذه الفترة بمسألة محنة خلق القرآن. ونشير إلى أن الخلافة العباسية في عهده واجهت عدة صعوبات، منها ثورات العلويين في العراق وجزيرة العرب، مثل ثورة الشريف ابن الأفطس الحسين بمكة، وثورة الشريف ابن طباطبا بالكوفة، وثورة الشريف إبراهيم بن موسى

---

[1] نفس المصدر والجزء، ص 294، 295

[2] البلخي أبو زيد أحمد، المصدر والجزء السابقان، ص 295

[3] ابن الأثير، المصدر السابق، ج 5، ص 427-451؛ البلخي أبو زيد أحمد، المصدر والجزء السابقان، ص 295، 296؛ ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر والجزء السابقان، ص 295-301

باليمن. ثم فتنة عمه إبراهيم بن المهدي، وذلك حين بايعه بالخلافة أخوه منصور بن المهدي وابن أخيه، ووجهاء بني العباس وأهل بغداد أول شهر محرم سنة 202هـ/818 م، بسبب إعلان الخليفة المأمون عقد ولاية العهد للشريف علي بن موسى وسماه الرَضَي، وأمر بنزع السواد ولبس الأخضر، وتغيير لون الرايات والأعلام إلى الأخضر، وبعث بذلك إلى بغداد آخر شهر ذي الحجة سنة 201هـ/819 م[1]. وكان من أهم الثورات التي فشل الخليفة المأمون في القضاء عليها، ثورة الزط، وحركة بابك الخرمي. وكان بابك الخرمي يعتقد بتناسخ الأرواح والحلول، واعتنق الخُرمية، وهي إحدى المذاهب المجوسية الفاسدة، ونعتبرها من أخطر الحركات السياسية والاجتماعية ذات الاتجاه العقدي الديني؛ لأن هذه الحركة كسابقيها تبنت مظالم الشعوب الفارسية، واستغلت ظروفهم المعيشية، وأشعلت في نفوسهم النزعة الشعوبية، وكانت تهدف إلى إسقاط الخلافة وإعادة المجد الفارسي والعقيدة المجوسية، وهذه المعلومات ذات الطابع السياسي والاجتماعي والديني، أفاد بها العيديد من المؤرخين[2].

كان بابك الخرمي قد أعلن الثورة بأذربيجان في عهد الخليفة المأمون سنة 201هـ/817 م، واستطاع جمع الناس من حوله، مستغلا في ذلك نقمتهم على العباسيين والعرب، وأوضاعهم الاجتماعية البائسة، واشتدت حركته وقويت وسيطرة على جميع تلك الأقاليم، ولم يستطع الخليفة المأمون القضاء عليه، وكانت إحدى أهم وصاياه للمعتصم بالله تسخير كافة موارد الدولة للقضاء على بابك الخرمي. فعلا لما ولي المعتصم الخلافة سنة 218هـ/834 م، وجه اهتمامه تجاه حركة بابك الخرمي، وأعد جيشا بقيادة طاهر بن إبراهيم الذي سار إلى أذربيجان سنة 219هـ/835 م، لكنه لم يفعل شيئا، وفي الوقت ذاته تمكن محمد بن بعيث أن يحتال على عصمة الكردي صاحب مرند، الذي كان مواليا لبابك الخرمي، وألقى عليه القبض، وبعثه إلى الخليفة المعتصم، مما رفع من شأنه عنده. فلما رأى الخليفة المعتصم عدم قدرت عامله على تلك النواحي، والجيش الذي بعثه إلى أذربيجان على إنهاء حركة بابك الخرمي. وكان بابك قد عقد تحالفا مع البيزنطيين، وشجعهم على غزو عاصمة الخلافة، رجيا من ذلك تخفيف الضغط عليه، وقد ادعى أن جميع من في عاصمة الخلافة، خرج لقتاله بأذربيجان. وفعلا، استجاب امبراطور بيزنطة وغزا بلاد المسلمين، لكنه فوجئ بعد ذلك بقوة الجيش العباسي بقيادة الأفشين. وقد أعد الخليفة المعتصم بالله جيشا بقيادة الأفشين حيدر بن كاوس، أحد أشهر قادته الأتراك، وأمده بالمال والسلاح، فتمكن الأفشين من إلحاق الهزيمة ببابك والاستيلاء على مدينة البذّ، ثم تمكن من أسره والقدوم به إلى الخليفة بمدينة سمراء سنة 223ه/838 م، حيث قتل وصلب. وكان الخليفة المعتصم بالله، قد بدأ

[1] البلخي أبو زيد أحمد، المصدر والجزء السابقان، ص 295، 296، 297؛ الطبري، المصدر السابق، ج 8، ص 554-557

[2] ابن الأثير، المصدر السابق، ج 5، ص 485؛ ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر والجزء السابقان، ص 319، 320

في اختطاط مدينة سمراء عاصمة دولته ابتداءً من سنة 220هـ/835 م، وأمر بإحيائها وعمارتها سنة 221ه/836 م[1].

أما ثورة الزّط، تنسب إلى قوم أصلهم من الهند، والروايات اختلفت في تاريخ استيطانهم العراق، لكن المتفق عليه أن محمد بن القاسم جلبهم معه من الهند، وذلك بسبب حاجة الحجاج بن يوسف الثقفي إلى المزارعين لإعمار منطقة البطائح بالعراق، فاستوطنوا هذه المنطقة الواقعة بين البصرة وواسط، وهي منطقة استراتيجية وصعبة، بها تمر الأنهر وفيها الأحواض المائية، وتعج بالقصب والحشائش، وتتحكم في النهر الواصل بين البصرة وبغداد، وسمي نهر البطيحة باسمهم، حيث سمي بنهر الزّط. وكان ظهور هذه الحركة في عهد الخليفة المأمون سنة 201هـ/817 م، وقد بايع الزّط محمد بن عثمان أميرا عليهم، واتفقوا على تولية سملق قائدا على الجيش، وقد أدى فشل الخليفة المأمون في القضاء عليهم إلى زيادة نفوذهم بالمنطقة، حتى بلغ بهم الأمر إلى قطع المؤن والميرة عن مدينة بغداد من جهة النهر. ولما ولي المعتصم بالله الخلافة، أعد جيشا بقيادة عُجيف بن عنبسة لقتالهم في شهر جمادى الآخرة سنة 219هـ/834 م، فاعتمد استراتيجية تقوم على سد مخارج ومداخل الأنهر، واستخدم البرمائيين، وهم رجال من مصر مهرة في الغطس والسباحة، فكانوا يباغتونهم فيقتلون وينسحبون، وهذا الأسلوب كان يشبه أسلوب الزّط في الدفاع والهجوم؛ لهذا لم يستطع الزّط الاستمرار في المقاومة خاصة بعد أن فقدوا أكثر من800 مقاتل، بسبب شدة القتال والحصار الذي دام حوالي سبعة أشهر، فاضطروا للاستسلام. وكان عدد الزّط 27 ألف، والمقاتلين منهم 12 ألف، فحملهم عُجيف جميعا عبر السفن إلى الخليفة المعتصم في شهر محرم سنة 220هـ/835 م، وأمر الخليفة بنفيهم إلى الثغور على حدود الدولة البيزنطية[2].

وكان المازيار حفيد ملوك طبرستان وجرجان القارنيين، قد ولاه الخليفة المأمون واليا عليها، ولما ولي المعتصم بالله الخلافة، بدأ المازيار يخطط ويعد العدة لإحياء دولة أجداده والاستقلال عن الخلافة العباسية، مستغلا في ذلك، انشغال الخلافة بالقضاء على الحركات والثورات المناوئة لها، حيث عقد تحالفا سريا مع بابك الخرمي، واتفق سرا مع القائد الأفشين، لكن خططه انكشفت، وأمر الخليفة المعتصم بالله الطاهريين للقضاء عليه سنة 224هـ/839 م، وقد وجه عبد الله بن طاهر الجيش بقيادة عمه الحُسين إلى المازيار، فتمكن من هزيمته، وألقى عليه القبض وبعثه إلى الخليفة، فسجن وعذب، فكشف عن المؤامرة التي حاكها مع الأفشين، وذلك لإحياء دين المجوسية ومجد الإمبراطورية الفارسية. ويبدو أن الخليفة المعتصم، كان يعد الأدلة للتخلص من الأفشين، الذي صار خطرا على الخليفة بسبب طموحاته السياسية والعسكرية، ورغبته

---

[1] ابن الأثير، المصدر السابق، ج 6، ص 36، 37، 38؛ اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب، المصدر والمجلد السابقان، ص 433، 434، 435؛ الطبري، المصدر السابق، ج 9، ص 31-53؛ ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 11، ص 51-54؛ علي عبد الرحمن العمرو، المرجع السابق، ص 405-415

[2] البلاذري أبو العباس أحمد، فتوح البلدان، تحقيق عبد الله أنيس، مؤسسة المعارف، بيروت، 1987، ص 519، 520، 521، 522، 523؛ الطبري، المصدر السابق، ج 9، ص 8، 9؛ ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر والجزء السابقان، ص 321؛ ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 11، ص 50، 51؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 3، دار صادر، بيروت، 1995، ص 140

في ولاية خرسان وبلاد الشرق، حيث شملت الأدلة مراسلات بين الأفشين والمازيار، وكذلك السلاح والمال، الذي تركه عند المازيار، ووجدوا ببيته رسائل وأصنام، هذا بالإضافة إلى تمرد مَنْكجور، أحد قواد الأفشين، الذي ولاه على أذربيجان بعد هزيمة بابك. وكان سبب ذلك كله، استحواذه على أموال بابك وإخفائها، ولما انهزم مَنْكجور وأسر، اتهموا الأفشين بتدبير ذلك. المهم، أن الخليفة بعد استغلال خبرة ونفوذ الأفشين في القضاء على أعداء الخلافة، نجح في التخلص منه وقتله عن طريق عقد محاكمة صورية[1].

4_النهضة العلمية والصراع العقائدي بين السنة والمعتزلة

شهدت الخلافة العباسية نهضة علمية، ازدهرت خلالها المؤسسات والمراكز العلمية وانتشرت، وعرفت إقبالا كبيرا من قبل العلماء والطلبة. ويبدو أن كل مؤسسة علمية، كانت تتضمن إحدى المراحل التعليمية. وقد نجم عن ذلك، ازدهار الحياة العلمية وتطور العلوم العقلية والنقلية. بناءً على ذلك، نتناول كل مؤسسة علمية، وما رافقها من نظم وأساليب، والدور الذي لعبته في ازدهار الحياة العلمية.

الكُتَّاب

اتفق المؤرخون على أن نشأة فكرة الكتاتيب، تعود إلى زمن النبي صلى الله عليه وسلم، حين اشترط على أسرى غزوة بدر، الذين لم تكن لديهم القدرة على دفع الفدية، تعليم المسلمين مقابل إطلاق سراحهم، ثم شهدت بعد ذلك تطورا خاصة في عهدي بني أمية وبني العباس. وتعد الكتاتيب أول مرحلة في التعليم وطلب العلم، حيث تضمن تعليم الصبيان القراءة والكتابة، ثم حفظ القرآن، وتلقين التلاميذ بعض الأخبار والمعلومات من بعض العلوم، كعلم الحساب، وبعض الفقه والأحاديث، والأمثال والحكم، وأخبار الأولين وقد بلغ التطور في نظم وأساليب التعليم بالكتاتيب إلى حد الفصل بين مواد التدريس، وتخصيص لكل مادة معلم. وقد صار هناك فصل بين معلم القرآن، الذي يلقن الصبيان حفظ القرآن قراءة لا كتابة، تعظيما لكتاب الله، ومعلم آخر يقوم على تعليم الخط، حيث نكتشف من روايات الرحالة، أنه كان نظاما تعليميا انفرد به المشرق الإسلامي أواخر العصر العباسي[2].

ويبدو أن فترة التعلم بالكتاتيب غالبا ما ارتبطت بقدرة التلميذ على الحفظ والفهم والاستيعاب، وهي غالبا لا تتجاوز خمس سنين، يعرض خلالها التلميذ مكتسباته العملية، ويختم القرآن. وقد تدرجت أساليب العقوبة على اللذين تأخروا عن زملائهم في التحصيل العلمي، أو أنهم لم يحترموا نظام الكُتَّاب، حيث يتعرض التلميذ للتوبيخ في بادئ الأمر، ثم تتدرج العقوبة إلى غاية

---

[1] ابن الأثير، المصدر السابق، ج 6، ص 51-58؛ الطبري، المصدر السابق، ج 9، ص 80-102

[2] مبروك بهي الدين الدعدر، الكتاتيب نشأتها وأنماطها وأثرها في تعلم وتعليم القرآن الكريم، مركز تفسير للدراسات القرآنية، الرياض، دون تاريخ، ص 46-50؛ ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق محمد عبد المنعم العريان، ط 1، دار إحياء العلوم، بيروت، 1987، ص 110

الضرب. إذا جاز التلميذ هذه المرحلة، كان باستطاعته أن ينتقل إلى المرحلة التعليمية التالية، والانضمام إلى الحلقات العلمية المنعقدة بالمساجد الجامعة[1].

تجدر الإشارة إلى أن المعلمين والكتاتيب، كانوا ينقسمون إلى ثلاثة أقسام. الكتاتيب العامة، يَدرس فيها أولاد عامة الناس. أما الكتاتيب الخاصة بأبناء الأمراء والولاة والأثرياء، كان المعلم فيها يلقب بالمؤدب. أما الكتاتيب الخاصة بأبناء الخلفاء، كان لا يتقدم لها إلا من كبار المؤدبين والعلماء، ممن فاض علمه وأحاط باللغة والسير والتاريخ وباقي أصناف العلوم. وكان منذ صدر الإسلام يحق للمعلم أن يفتح مكتبا لتعليم الصبيان، لكن مع تطور المجتمع، حاولت الدولة أن تواكب ذلك التغير الاجتماعي، فاشترطت شروطا على المعلم، فلا يحق له فتح كُتاب إلا إذا استوفى تلك الشروط[2]. وكان المعلمون لهم كُتَّاب خاصة، يدرسون بها العربية، والنحو، والعروض، ومن بينها مكتب علقمة بن أبي علقمة الذي توفي في خلافة أبي جعفر المنصور[3].

المساجد الجامعة

كانت المساجد الجامعة، قد لعبت دورا حضاريا راقيا، حيث لم يقتصر دورها على العبادة والذكر، بل لعبت دورا سياسيا واجتماعيا هاما، وساهمت بدور فعال كمؤسسة علمية، ضمت حلقات علم توافد عليها العلماء والطلاب، ودُرس فيها مختلف أصناف العلوم، وفي مقدمتها علوم الفقه والتفسير والحديث، هذا بالإضافة إلى معارف مختلفة، كالسير والتاريخ، والأمثال والحكم، بل إن بعض المساجد كان يدرس فيها الطب والميقات، كما أنها نشأت من حلقات العلم بالمساجد فرق كلامية، وتيارات فكرية فلسفية عقدية كالمتكلمة، والمعتزلة. وكان الطلبة يتخذون من بعض زوايا المسجد مكانا للنسخ والدرس، ولم تقتصر حلقات العلم على مذهب واحد، بل أحيانا يكون لكل عالم من علماء المذاهب السنية الأربعة حلقة، وحتى مخالفي المذاهب الأصولية لهم حلقات[4].

المدارس والمجالس العلمية

تميزت فترة الخلافة العباسية بنشأة المدارس، ورغم أن الكثير من المؤرخين والمهتمين بهذا الشأن أرجعوا الفضل في نشأة المدارس خلال العصر العباسي إلى الوزير السلجوقي نظام الملك (ت 485هـ/1092 م)، فيما عرف بالمدارس النظامية، إلا أن هناك من استهجن ذلك، ورأى أن المدارس وجدت قبل نظام الملك، حيث أفادت الروايات أن الإمام أبا حاتم البستي الأديب المحدث (ت 345هـ/957 م)، أنشأ مدرسة سماها "دارا" ببلده بُست، وقد جعل فيها غرفا للطلاب، وغرفا للدرس، ومكتبة مليئة بالكتب، فيها جميع مؤلفاته، كما أنه جمع لها المال والأرزاق خصصها لطلبة العلم الغرباء. وكان أتباع المذهب الشافعي بنيسابور، قد أسسوا مدرسة للإمام النيسابوري الحسين بن علي الحافظ (ت 349هـ/961 م). أما في طهران قام أعيانها بتأسيس مدرسة للفقيه الشافعي الإمام الحاتمي (ت 362هـ/973 م). وقد أسس الإمام المحدث أبو علي الحسيني (ت 393هـ/1003 م)، مدرسة لتعليم الحديث وروايته، بلغ عدد الوافدين عليها من الطلبة

---

[1] محمد أسعد طلس، التربية والتعليم في الإسلام، مؤسسة هنداوي، القاهرة، 2014، ص 71-77

[2] نفسه، ص 59، 60، 61، 62

[3] ابن قتيبة عبد الله بن مسلم، المعارف، تحقيق تروث عكاشة، ط 4، دار المعارف، القاهرة، دون تاريخ، ص 549

[4] أحمد شلبي، التربية الإسلامية نظمها – فلسفتها – تاريخها، ط 6، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1978، ص 109، 110، 111، 112

حوالي ألف طالب علم من مختلف أقاليم البلاد الإسلامية. أما الإمام الإسماعيلي (ت 396هـ/1006 م)، أسس مدرستين لتعليم الفقه الشافعي ببغداد، إحداهما ترأسها الإمام أبو إسحاق الإسفرائيني إبراهيم (ت 418هـ/1028 م)، والأخرى الإمام الباقي. علاوة على ذلك، قام فقهاء نيسابور ببناء أعظم مدرستين، للإمامين، الإمام المحدث الأديب ابن قورك محمد بن الحسن الأنصاري (ت 406هـ/1016 م)، والإمام أبو إسحاق الإسفرائيني إبراهيم[1]. وفيما يخص المدارس النظامية التي أسسها الوزير السلجوقي نظام الملك في الأمصار الإسلامية، كان أشهرها المدرسة النظامية التي أنشأها سنة 459هـ/1066 م)، وكان أول من درس فيها الإمام أبو إسحاق الشيرازي (ت 476هـ/1084 م)، ثم ولي التدريس فيها الإمام أبو نصر الصباغ (ت 476هـ/1084 م)، ثم ولي من بعده الإمام أبو سعيد ولما توفي، تولى التدريس من بعده الإمام الشريف العلوي أبو القاسم الدبوسي (ت482هـ/1090 م)، ثم تولى التدريس كلا من الإمام أبي عبد الله الطبري والقاضي عبد الوهاب الشيرازي بالنوبة يوما بيوم، ثم تولى التدريس بها الإمام أبو حامد الغزالي سنة 484هـ/1092م، واستمر مشاهير العلماء في التدريس بالمدارس النظامية[2].

نكتشف من روايات الرحالة، أن المدارس النظامية المنسوبة إلى نظام الملك، كان النظام التعليمي فيها مختلفا عن باقي المؤسسات العلمية، حيث تحتوي المدرسة على كرسي العالم المدرس الذي يعتلي المنبر، وهناك كراسي مخصصة لمجموعة من قراء القرآن. وكان الفقيه أو المحدث، إذا دخل وصعد منبره، أذن للقراء الجالسين على الكراسي بقراءة القرآن، فيستمع من حضر من العلماء والطلبة تلاوة القرآن، ثم يعقب العالم المدرس على ذلك بالتفسير وذكر الأحاديث، ثم يتم محاضرته في شتى العلوم الأخرى، ثم يتصدر للإجابة عن أسئلة الحاضرين من فقهاء وطلبة. وكان الدرس يبدأ على الأغلب من بعد صلاة العصر إلى غاية المساء. وتجدر الإشارة إلى أن نظام القراءة والتلاوة، يختلف من مدرسة إلى أخرى. إذ كان القراء في مدرسة ما يتلون كتاب الله مع بعضهم على نحو واحد، فإن الأمر يختلف في المدرسة الأخرى، حيث يتقدم بعض القراء بتلاوة آيات من كتاب الله، يتبعهم آخرون بتلاوة الآيات التي تليها، وهكذا حتى تتم الآيات المراد تفسيرها، مثل الإمام رّضي الدين القزويني أبو الخير أحمد (ت 590هـ/1194 م)، وهو رئيس الشافعية ببغداد، وكان فقيه المدرسة النظامية[3]. ولا بد من الإشارة، إلى أن عدد المدارس بلغت أواخر العصر العباسي بمدينة بغداد 30 مدرسة، كان أعظمها المدرسة النظامية، وكل هذه المدارس كان لها أوقاف، خصصت عائداتها للمعلمين والطلبة، وما تعلق بنفقات المدرسة[4].

وفيما يخص مجالس العلم الأخرى، لم تكن محصورة في مبنى، ولا على مجالس الخلفاء والأمراء، وإنما كانت مجالس يعقدها العلماء النجباء، وذلك في أي موضع يروه مناسبا للوعظ والتدريس، ونظام هذه المجالس العلمية، لم يكن مختلفا عن نظام وأسلوب مجالس المدارس النظامية. نضرب مثلا، مجالس العالم الإمام الفقيه الأديب جمال الدين أبو الفضائل بن علي

---

[1] محمد أسعد طلس، المرجع السابق، ص 107، 108

[2] ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 5، ص 15

[3] ابن جبير أبو الحسن محمد، رحلة ابن جبير، دار ومكتبة الهلال، بيروت، دون تاريخ، ص 174، 175

[4] المصدر نفسه، ص 183

الجوزي (ت 597هـ/1201 م)، الذي كان يعقد مجالسه ببغداد صباحا، أحدهما بجوار داره، والآخر بمحاذاة قصور الخلافة، يعقده كل يوم سبت، وكان أيضا يعقد مجالسه في أيام أخرى كيوم الخميس[1].

بيت الحكمة والمكتبات

الحقيقة أن نشأة المكتبات والترجمة والتأليف، ترجع في بادئ الأمر إلى عهد بني أمية، حيث كان الأمير خالد بن يزيد بن معاوية (ت 90 هـ/709 م)، مولعا بالتأليف والترجمة، وله مؤلفات خاصة في الكيمياء، وجمع المخطوطات القديمة الإغريقية والفارسية والرومية، حيث اعتمد في الترجمة على السريان، ومن أشهر هؤلاء البطريق. أما في عهد بني العباس، كان الخليفة أبو جعفر المنصور أول من اهتم بالترجمة، حيث أسند هذه المهمة إلى أبي زكريا يحي بن البطريق (ت 200هـ/815 م). وقد اشتهر ابن ناعمة عبد المسيح بن عبد الله الحمصي سلام الأبرش (ت 220هـ/835 م) أيام البرامكة. أما الخليفة المأمون، فقد اشتهر بتشيعه لحركة الترجمة، وجمع حوله المترجمين أمثال الحسن بن سهل (ت 236هـ/851 م)، الذي ولي جميع أعمال بلاد الشرق. وكان الخليفة المأمون أسند لهؤلاء المترجمين، ترجمة الكثير من الكتب القديمة من لغاتها إلى اللغة العربية، فمثلا قام الحجاج بن يوسف بن مطر (ت 218هـ/833 م) بترجمة كتب كثيرة إلى العربية ككتاب المجسطي، واقليدس. وكان حبيب بن بهريز مطران الموصل يترجم ويفسر الكثير من الكتب للخليفة المأمون. ونقول، إن عددهم كثير لا يمكن ذكر أسمائهم جميعا في هذه المقالة، إلا أن من أراد الاطلاع على أعلام المترجمين وأمهات الكتب المترجمة، يمكنه الرجوع إلى كتاب الفهرست لابن النديم (ت 380هـ/991 م)[2].

يعتبر بيت الحكمة من أعظم المكتبات وأشهرها، تعود جذور نشأتها إلى الخزانة التي أنشأها الخليفة أبو جعفر المنصور، وزودها بالكتب القديمة التي أمر بترجمتها إلى العربية، منها كتب في الطب والهندسة والنجوم والآداب، وأضاف إليها كتبا صنفت في الحديث والتاريخ والأدب. ولما ولي الخلافة هارون الرشيد اعتنى بها، فأنشأ بها عدة مكتبات، وجعل لبيت الحكمة عدة أقسام، كما أنه عين رئيسا على بيت الحكمة؛ فكان هناك قسم الترجمة، وقسم التأليف، وقسم النسخ والوراقة، وقسم تجليد وزخرفة الكتب[3]. ويبدو أن الشهرة الواسعة والمكانة الرفيعة التي اعتلاها بيت الحكمة يرجع الفضل فيها إلى الخليفة المأمون، وسَلْم صاحب بيت الحكمة –رئيس المكتبة-. وقد أمر المأمون بتوسعة بيت الحكمة وجعله من أولوياته. وكان ابن النديم في الفهرست، قد أجاد بجهود الخليفة المأمون الذي استغل علاقته الجيدة مع إمبراطور بيزنطة، وأرسل جماعة من العلماء والأدباء العارفون بالترجمة، وكانت مهامهم تكمن في جلب نفائس الكتب القديمة الإغريقية والرومية في شتى أنواع العلوم العقلية والنقلية، خاصة ما تعلق بالفلسفة، والطب، والهندسة، والكيمياء، والفلك، والموسيقى، والارثماطيقي، ومن العلماء الذين أدوا هذه المهمة،

[1] ابن جبير، المرجع السابق، ص 176، 177، 178، 179

[2] ابن النديم، الفهرست، دار المعرفة، بيروت، دون تاريخ، ص 340، 341، 342

[3] سعيد الديوجي، بيت الحكمة، ط 2، مؤسسة دار الكتب للنشر، بغداد، 1972، ص 31، 32

نذكر منهم: سَلْم رئيس بيت الحكمة، وابن البطريق، والحجاج بن مطر، وقسطا ابن لوقا البعلبكي، ويوحنا بن ماسويه، وأحمد ومحمد والحسن أبناء شاكر المنجم، وحنين بن إسحاق، وحبيش بن الحسن، وثابت ابن قرة. وكان الخليفة المأمون، يأمرهم بترجمتها مباشرة بعد نقلها إلى بيت الحكمة[1]. وتجدر الإشارة إلى أنه أنشئت بيوتا ودورا للحكمة والمكتبات في العديد من الأمصار الإسلامية، كالقيروان والقاهرة وطرابلس ومراغة، كما كانت هناك خزائن كتب للفتح بن خاقان، ولآل المنجم في كركر، وخزانة ببخارى، ومكتبة دار علم لجعفر بن حمدان الموصلي، ومكتبة دار علم البستي، ودار علم سابور فب بغداد، ودار علم غرس النعمة الصابي، ودار علم ابن المارستانية[2].

الصراع العقائدي بين السنة والمعتزلة

المعتزلة فرقة كلامية متأثرة بالفلسفة، خالفت جمهور أهل السنة. والمعتزلة، هم معطلة لم يثبتوا لله الصفات، ورأوا أن إثباتها يجعل الله تعالى مثل البشر. وفي هذا السياق، نعرض نصا لابن خلدون (ت 808هـ/1406 م)، تحدث عن ذلك بوضوح، قائلا: "العلم والقدرة والإرادة. ثم الحياة التي هي شرط جميعها، ومنها ما هي صفة كمال، كالسمع والبصر والكلام، ومنها ما يوهم النقص كالاستواء والنزول والمجيء، وكالوجه واليدين والعينين التي هي صفات المحدثات. ثم أخبرنا الشارع أننا نرى ربنا يوم القيامة كالقمر ليلة البدر..."[3].

وكان واصل بن عطاء الغزال (ت 131هـ/749 م)، قد اعتزل حلقة شيخه الحسن البصري، فسمي هو وأتباعه بالمعتزلة، وكان تيارا فكريا عقديا مخالفا للعقيدة الأصولية، واشتهر من شيوخ المعتزلة أبو الهذيل العلاف (ت 235هـ/850 م)، الذي اتبع رأي الفلاسفة في نفي الصفات الوجودية، واعتلى مذهب المعتزلة إبراهيم النظام (ت 231هـ/845م)، الذي تشدد في نفي الصفات، وقرر قواعد الاعتزال، ثم جاء من بعده آخرون كالجاحظ (ت 255هـ/868م)، وأبي القاسم الكعبي (ت 319هـ/931م)، والجبائي محمد بن عبد الوهاب (ت 303هـ/916م). وكان علماء السنة يدعون إلى التشديد عليهم ووعظهم وتأديبهم، من ذلك قول الإمام الشافعي رحمه الله (ت 204هـ/820م):"حقهم أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم". وكان نجمهم يسطع إلى أن تصدى لهم أبو الحسن الأشعري (ت 324هـ/936م)، واتبع منهجا وطريقة، أفحمن فيها شيوخ المعتزلة، ولم يترك لهم حججا ولا جدالا، وأثبت لهم جميع صفات الله. وكان الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله (ت 241هـ/855م)، ثابتا على عقيدة السلف، رافضا لعقائد المعتزلة[4].

وقد ذكر ابن الجوزي (تـ/) أن الخليفة المأمون، أظهر القول بخلق القرآن في شهر ربيع الأول سنة 212هـ/828م[5]، إلا أن هذه الرواية ضعيفة لا صحة لها، والأصح أن المؤرخين ذكروا أن الخليفة المأمون كلف إسحاق بن إبراهيم ببغداد بامتحان القضاة والشهود والفقهاء والمحدثين في

---

[1] ابن النديم، المصدر السابق، ص 339، 340

[2] سعيد الديوجي، المرجع السابق، ص 40-81

[3] ابن خلدون عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيت الأفكار الدولية، الأردن، دون تاريخ، ص 241

[4] المصدر نفسه، ص 241، 242

[5] ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 10، ص 248

القول بخلق القرآن في شهر ربيع الأول سنة 218هـ/834م، فمن أقر على أنه مخلوق مُحدث خلى سبيله، ومن رفض وامتنع رفعه إلى الخليفة. وكان المأمون قد طلب منه أن يحضر إليه سبعة وهم من كبار المحدثين، فلما امتحنهم خافوا وأقروا على أنه مخلوق، فأطلق سبيلهم وعادوا إلى بغداد. ثم إن الخليفة المأمون وجه إسحاق بن إبراهيم إلى امتحان القضاة والفقهاء. ونكتشف من الروايات التاريخية، أنهم انقسموا إلى فريقين. الفريق الأول، حاول التلاعب واستخدام الدهاء لتجنب العقاب، فصرحوا أنه كلام الله، وراحوا يراوغون إسحاق بن إبراهيم. والفريق الثاني، أقر بخلق القرآن. أما أحمد بن حنبل فأصر على مقولته في أن القرآن كلام الله، لا يزيد على ذلك ولا ينقص، وأثبت صفات الله كما ذكرها عز وجل في كتابه. فلما بعث إسحاق بالكتب التي قرر فيها أجوبتهم، أمره أن يمتحنهم، فمن أقر أطلق سبيله، ومن امتنع يأتيه به إلى معسكره مكبلا بالحديد، وأمره بامتحان الفقيهين بشر بن الوليد وإبراهيم بن المهدي، فإن لم يقرا بخلق القرآن قتلهما[1].

فلما أعلمهم إسحاق بقرار الخليفة المأمون أقروا بمقولته ولكن كعادتهم راوغوا في الإجابة، إلا أربعة امتنعوا وأصروا على موقفهم، وهم: أحمد بن حنبل، وسجّادة، والقواريري، ومحمد بن نوح، فوثقهم إسحاق بالحديد، ثم أعاد امتحانهم في اليوم الموالي فأقر سجادة والقواريري فأطلق سراحهما، وثبت أحمد ومحمد، فسار بهما إلى طرسوس للقاء الخليفة، إلا أن الخليفة المأمون أصابه المرض فمات مرابطا في الثغور، وأعيد أحمد بن حنبل وصاحبه مكبلين بالحديد إلى بغداد، وفي الطريق مات محمد بن نوح. وكان المأمون قد أوصى أخاه المعتصم، وهو في الفراش يحتضر بعدة مسائل، من بينها مسألة خلق القرآن[2].

وقد بدأ الخليفة المعتصم في امتحان الإمام أحمد بن حنبل في مسألة خلق القرآن سنة 219هـ/835 م، حيث عرض عليه المسألة فثبت على قوله، وما كان من الخليفة إلا أنه أمر بجلده حتى غاب عن الوعي، ثم أمر بتكبيله بالحديد وإبقائه في السجن. ويبدو أن رواد المعتزلة كانوا مقربين جدا من الخليفة المأمون، ثم الخليفة المعتصم، ثم الخليفة الواثق، وكانوا لهم أصحاب رأي ومشورة وندماء، حيث نكتشف من الروايات أنهم لم يفارقوا الخليفة لا في المجالس ولا في الأسفار. وقد أفادت إحدى الروايات، أن أحمد بن أبي دؤاد (ت 240هـ/854 م)، وهو قاضي القضاة، وأحد رؤساء المعتزلة المتنفذين في مجلس الخلافة، لم يكن يفارق الخليفة المعتصم بالله، حاضرا في مجالسه ومرافقا له في أسفاره، وكذلك بالنسبة للخليفة الواثق. وهناك أيضا، بشر بن غياث المُرسي (اختلف في تاريخ وفاته)، وهو من نقل عقيدة المعتزلة وخلق القرآن إلى أحمد بن أبي دؤاد، أما بشر فأخذها عن الجهم بن صفوان (ت 128هـ/746م)، الذي بدوره أخذها عن الجعد بن درهم (ت 124هـ/742م)[3].

وتجدر الإشارة إلى أن أحمد بن حنبل ليس الوحيد الذي ضحى في سبيل هذه القضية، بل إن هناك من العلماء والخاصة من سجن وعذب وقتل، ولم يتنازل عن عقيدته، ونذكر من هؤلاء أحمد بن نصر الخزاعي، الذي جهر بموقفه من محنة خلق القرآن، بل راح يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويأمر بالطبل والكلام في المسألة بمحاذاة قصر الخلافة، مما أثار غضب الخليفة الواثق

[1] ابن الأثير، المصدر السابق، ج 5، ص 572، 573، 574، 575
[2] نفس المصدر والجزء، ص 576، 578
[3] ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 3، ص 345؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج 6، ص 10، 77

(227-232هـ/842-847م)، فأمر به إلى مجلسه وكان ممن فيه المعتزلة وعلى رأسهم أحمد بن أبي دؤاد، فامتحنه فثبت وصبر، وقال هو كلام الله ليس بمخلوق، فاتهمه القاضي والمعتزلة بالكفر، ونهض إليه الواثق فضربه بالسيف وقتله، ثم أمر به فصلب على باب المدينة، وبعث برأسه إلى بغداد، ومعها رقعة كتاب ينعته فيها بالكافر، وأمر أن يبقى مصلوبا، كما أمر بالقبض على جميع أصحابه، وممن كان لا يقر بخلق القرآن، ووضعهم جميعا في السجن، وذلك سنة 131هـ/749 م. وفي هذه السنة، بلغ الأمر بالخليفة الواثق، بأن ربط فداء أسرى المسلمين بالإقرار بخلق القرآن، حيث أمر قائده المفاوض في تبادل وفداء أسرى المسلمين بأسرى الروم، أن يلتزم بتحرير الأسرى الذين أقروا بأن القرآن مخلوق، وترك من لم يقر بذلك أسيرا عند البيزنطيين، وكان عدد أسرى المسلمين حوالي 4460 أسيرا، بالإضافة إلى النساء والصبيان الذين بلغ عددهم حوالي 800 أسير. وكان الخليفة الواثق متشددا في مسألة خلق القرآن، والغالب على مجلسه المعتزلة، يأخذ بعقيدتهم، ومات وهو بين يدي أحمد بن أبي دؤاد[1]. قلما وفي الخلافة المتوكل (247-232هـ/847-861م)، انقلب على المعتزلة سنة 237هـ/949م، فخلع أحمد بن أبي دؤاد من القضاء، وستصفى أمواله، واستبعد المعتزلة من مجلسه، وعين يحي بن أكثم على القضاء، وأمر بعدم الكلام في مسألة خلق القرآن، وأمر الالتزام بالكتاب والسنة[2]. وبناءً على ذلك، انتهت محنة خلق القرآن

[1] ابن الأثير، المصدر السابق، ج 6، ص 78، 97، 98، 99، 100، 101، 106؛ ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 3، ص 339، 340، 341

[2] ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 3، ص 345

الفصل الثاني: الخلافة العباسية في فترة الضعف والاضمحلال

1_ فترة الفوضى العسكرية (247-334هـ/861-946م)، المميزات والصعوبات

2_ الدويلات المستقلة عن الخلافة العباسية

3_ الخلافة العباسية خلال عهد الدولتين البويهية والسلجوقية (334-590هـ/946-1194م)

4_ علاقات الدولة العباسية الخارجية في فترة البويهيين والسلاجقة

5_ النهضة العلمية فترة البويهيين والسلاجقة

1_ فترة الفوضى العسكرية (247-334هـ/861-946م)

شهدت الخلافة العباسية تنظيما إداريا وعسكريا محكما خلال العصر العباسي الأول، واستطاعت تجاوز الصعوبات والتحديات التي واجهتها. وكان الخلفاء العباسيون خلال هذه الفترة يتمتعون بالقوة والنفوذ، لكن التغيرات التي أحدثها الخليفة المعتصم من إدخال العنصر التركي في الجيش والسلطة وتقريب القواد الترك، أدى تدريجيا إلى تعاظم نفوذ هؤلاء، وبلغ بهم الأمر إلى سعيهم للاستحواذ على السلطة والمال، حيث تسبب جشع وطمع كبار القادة الأتراك إلى إضعاف سلطة الخلفاء، وجعلوهم ألعوبة في أيديهم، مما أدخلوا الخلافة العباسية في فترة فوضى وضعف، وسنبين ذلك في هذه الدراسة.

الاطلاع على النصوص التاريخية، يعطي صورة واضحة عن حيثيات هذه الفترة، حيث يمكن تصنيفها إلى ثلاثة مراحل، على النحو الآتي:

المرحلة الأولى: تبدأ في نظرنا من تاريخ اغتيال الخليفة المتوكل، وبيعة ابنه محمد المنتصر. والسبب في اغتيال الخليفة المتوكل، يعود إلى عدة دوافع، منها تدهور العلاقة بين المتوكل وابنه محمد المنتصر، حيث كان يستخف به ويهدده بالخلع من ولاية العهد، ويخطط رفقة الفتح بن خاقان للتخلص منه، وقتل القادة الأتراك وعلى رأسهم وصيف وبغا، وفي الوقت ذاته كان المنتصر يأخذ على أبيه ترك عقيدة المعتزلة والسكوت عن الإساءة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وتفضيل المعتز عليه، حتى أنه قدمه للخطبة والصلاة بالناس يوم الجمعة. ويبدو أن الخليفة المتوكل لم يقتصر خلافه مع ابنه المنتصر، بل أدت سياسته تجاه كبار القواد الترك إلى تعميق الكراهية والضغينة في نفوسهم، ومن ذلك أنه أمر بمصادرة ضياع وأموال القائد وصيف، وإقطاعها للفتح بن خاقان. وكان القواد الأتراك يتحينون الفرصة للتخلص من المتوكل، فاتصل القائد وصيف بالمنتصر، وأحاك مؤامرة لاغتيال المتوكل. وفي ليلة الاغتيال، انصرف المنتصر من القصر، وأمر القائد بغا الصغير جميع ندماء الخليفة بالانصراف، فلم يبق معه سوى الفتح بن خاقان وأربعة من الخدم خاصته، ثم أغلق الأبواب باستثناء باب دجلة، الذي دخل منه موالي للقائد وصيف وأولاده الخمسة، وقادة أنراك آخرين أمثال، واجن، وباغر، وبغلون، وهارون بن صوارتكين، وموسى بن بغا الكبير، وغيرهم، فقتل ابن خاقان وهو يدافع عن الخليفة المتوكل، الذي قتل بدوره على أيديهم، ثم أبلغوا المنتصر بذلك، وادعوا أن الفتح بن خاقان قتل الخليفة، وهم قتلوه لأجل ذلك، فبويع المنتصر بالخلافة ليلة مقتل المتوكل في شهر شوال سنة 247هـ/861م[1].

وقد بويع المنتصر بالخلافة، وألقي القبض على أخويه المعتز والمؤيد وحبسا في دار، وأرغما على خلع نفسيهما من ولاية العهد، وصار القادة الأتراك متنفذين في الخلافة، يأتمر الخليفة بأمرهم، ووقعت بينهم المنافسة للاستحواذ على السلطة وخزينة الدولة. وكان الخليفة المنتصر قد استوزر كاتبه أحمد بن الخصيب، فوقع الخلاف بين ابن الخصيب وبين القائد وصيف، فلجأ ابن

[1] ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 3، ص 350؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج 6، ص 171، 172، 173، 174؛ الطبري، المصدر السابق، ج 9، ص 222، 223، 224، 225، 226، 227؛ ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 11، ص 353، 354، 355، 356، 357

الخصيب إلى الخليفة لاستبعاده إلى الثغور، ففعل، إلا أن الخليفة المنتصر باغته المرض فمات في شهر ربيع الأول سنة 248هـ/862م، ولم تدم خلافته إلا ستة أشهر، فاجتمع القادة الأتراك ومن بينهم بغا الكبير، وبغا الصغير، وأتامش، وكذلك الوزير أحمد بن الخصيب، واتفقوا على بيعة المستعين أحمد بن محمد بن المعتصم، فبويع بالخلافة، وعين أحمد بن الخصيب كاتبا، وأتامش وزيرا. ويبدو أن الفوضى لم تقتصر على تعاظم تدخل القادة الأتراك في تعيين الخليفة واستغلاله، بل مع كل اغتيال وتنمر من قبل هؤلاء القادة يرافقه ثورة للجند الرافضين، حيث أدت وفاة المنتصر إلى فوضى وحرب بين جماعات الجند، فلما بويع المستعين رفض جماعة من الجيش البيعة وطالبوا ببيعة المعتز، ولم تنته الفوضى إلا بعد انهزامهم ومقتل بعضهم[1].

وقد تفشت الفوضى والاضطرابات، ولم يبق للخليفة إلا الاسم، فبمجرد وقع الخلاف بين أحمد بن الخصيب والأتراك، حتى سارع هؤلاء إلى مصادرة أملاكه وأموال ولده، ونفي أحمد بن الخصيب إلى إقريطش، وفي المقابل لم يكن باستطاعة الخليفة المستعين فعل شيء، بل وافق على تعيين أتامش وزيرا له، وكذلك ولاه مصر والمغرب، وتولى شاهك الخادم حرس الخليفة وداره وحرمه وخيله وجميع أمره، فسيطر أتامش وشاهك على السلطة وخزينة المال. ويبدو أن تغول القادة الأتراك في السلطة ونهب أموال الدولة، واستضعاف الخلفاء، دفع العامة من الناس إلى الثورة في بغداد وسامراء، وإطلاق سراح السجناء وانتشار الفوضى في المدينتين، وأمام هذا الخطر اجتمع بغا ووصيف وأتامش وباقي الأتراك، وتمكنوا من فرض الأمن بسامراء. وكان أتامش وشاهك الخادم وأم الخليفة اتفقوا على الاستحواذ على خزائن بيت المال، ذلك أثار حفيظة وصيف وبغا، وتآمرا على قتل أتامش، وأثارا الأتراك والفراغنة، فقتلوه ونهبوا أمواله، وقتلوا كاتبه شجاع؛ فلما قتل أتامش، أقدم الخليفة على تعيين أبي صالح عبد الله بن محمد وزيرا له، إلا أن الضعف دب في الخلافة والوزارة إلى حد كبير على أيدي القادة الأتراك، حيث إن أبا صالح خاف على نفسه من بغا الصغير فهرب إلى بغداد، فقام الخليفة المستعين بتعيين محمد بن الفضل الجرجرائي في منصب الوزارة[2].

يبدو أن الفوضى سادت مدينة سامراء، وتغول القادة الأتراك، واشتد الصراع فيما بينهم على السلطة والمال، وانعكس ذلك على أمن الخليفة، حيث سارع القائد باغر إلى التآمر لقتل الخليفة المستعين وبغا ووصيف، إلا أنه فشل واكشف، فقتله بغا ووصيف، فاجتمعت هذه الظروف واضطر الخليفة إلى الفرار واللجوء إلى بغداد، مثلما فعل وزيره. وكان هذا الحدث بمثابة التهديد الفعلي لنفوذ القادة الأتراك، الذين سارعوا إلى إطلاق سراح المعتز وأخيه، وبايعوه بالخلافة، ثم جهزوا الجيش للاستلاء على بغداد، وخلع المستعين من الخلافة، وبذلك انقسمت الخلافة العباسية إلى خليفتين، المعتز بسامراء، والمستعين ببغداد، وسار بغا ووصيف على رأس الجيش، وفُرض الحصار على بغداد، واضطر المستعين إلى خلع نفسه من الخلافة في شهر محرم سنة 252هـ/867م. ولما ولي المعتز الخلافة وجد نفسه مقيدا، والسلطة الفعلية في يد القادة الأتراك، فحاول التخلص من بغا الكبير ووصيف، فأمر بإسقاطهما من الديوان، ثم تآمر على قتلهما، لكن

[1] ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 3، ص 353، 354؛ ابن الطقطقا، المصدر السابق، ص 239؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج 6، ص 185، 186، 187، 188، 189

[2] ابن الأثير، المصدر السابق، ج 6، ص 191، 192، 193، 194، 195

مساعيه فشلت، واضطر لاستقبالهما في سامراء، وتسليم الأمر من جديد لهما ولباقي القادة الأتراك، واستمرت الخلافة العباسية في الفوضى والضعف، ومن ذلك احتجاج الجند ببغداد، والمطالبة بدفع أرزاقهم، ووقع القتال بينهم وبين محمد بن عبد الله بن طاهر، وسقط الكثير من القتلى، وازداد الأمر سوءاً، حين طالبوا بخلع الخليفة المعتز، وانتشر النهب والقتل والحرائق بالمدينة[1].

وكان الوضع المضطرب يثير غضب الجند المغاربة، فوقعت الفتنة بينهم وبين الأتراك، واقتتلا. وسبب ذلك، أن المغاربة رفضوا سياسة القادة الأتراك القائمة على خلع الخلفاء والوزراء والتلاعب بهم، وانتهت هذه الفتنة بالصلح بين الفريقين. وكانت نهاية الخليفة المعتز، حين ثار الجند وطالبوه بدفع أرزاقهم وقتلوا القائد وصيف، فتولى منصبه القائد بغا الصغير، ثم خاف الخليفة على نفسه منه، فهرب ودبر مكيدة لقتله ونجح في قتل بغا الصغير في سنة 253هـ/867م، وأشارت روايات أخرى إلى سنة 254هـ/868م. وكانت نهاية المعتز بسبب عدم دفع أرزاق الجيش، حيث ثار الجند، وقام إليه صالح ومحمد ابني بغا، وبابكيال وغيرهم من القادة، فضربوه وأهانوه، ثم سجنوه ومنعوا عنه الماء والطعام وأمروا بضربه ثلاثة أيام حتى مات[2]. وقد اجتمع القادة الأتراك واختاروا محمد بن الواثق فبايعوه ولقب بالمهتدي بالله في شهر رجب سنة 255هـ/869م. وحسب النصوص التاريخية، نكتشف أن الخليفة المهتدي كانت لديه الرغبة في استعادة سلطة الخلافة العباسية، ووضع حد لتدخل القادة الأتراك في السلطة وخزينة المال، فأطلق سلسلة من الإصلاحات شملت منع الملاهي وبيوت الخمر والزنى، وأمر بتشييد العمارة ومحاربة الفساد، كما أنه سعى إلى إثارة الفتنة بين القادة الأتراك، فكان يطلب من صالح بن وصيف الخروج إلى القتال، ثم يتهمه بالفساد والمعصية، وأخذ الأموال، وأدى طمع القادة في اقتسام المال والاستحواذ عليه إلى وقوع فتنة بينهم وبين صالح بن وصيف، ودفع ذلك إلى محاولة القائد موسى بن بغا ورفاقه خلع المهتدي، لكنهم عدلوا عن ذلك، ثم اتهموه بالتآمر في شهر محرم سنة 256هـ/870م، لكن المهتدي كان شجاعا حاسما ذكيا ، أشاع أن محمد بن بغا وموسى بن بغا وبابكيال وصالح بن وصيف، استضعفوا المعتز واستولوا على الأموال وأثاروا الفتن، فاستجاب له الجند والعامة للقتال، فاضطر القادة الأتراك للخضوع والتسليم، ثم قام موسى بن بغا بقتل صالح بن وصيف. المثير للاهتمام، أن الخليفة المهتدي استمر في استراتيجيته، فبمجرد أن طالب الجند بأرزاقهم حتى اتهم المهتدي كلا من محمد وموسى ابنيبغا بالاستحواذ على أموال الخزينة، فاستطاع بذلك مصادرة كل أموال محمد بن بغا وقتله، ثم استعمل المكر والمكيدة فقتل القائد بابكيال، وجمع من ولاه من الجند والعامة والفقهاء وقاتل الأتراك، وبذل شجاعة فائقة إلى أن أثخن بالجراح، فأسر ووضع بالسجن وأرغموه على التنازل عن الخلافة، فرفض وصبر تحت التعذيب حتى مات[3].

---

[1] ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 3، ص 358، 359، 359، 360، 361، 362؛ الطبري، المصدر السابق، ج 9، ص 354، 355،، 356، 357، 358

[2] ابن الأثير، المصدر السابق، ج 6، ص 233، 234، 235، 238، 256؛ ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 3، ص 363، 364، 366، 367؛ الطبري، المصدر السابق، ج 9، ص 369، 374، 379

[3] ابن الأثير، المصدر السابق، ج 6، ص 258، 275، 276، 277، 278، 279، 280، 282، 283، 284، 285، 288؛ ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 3، ص 370، 371، 379، 380

المرحلة الثانية: تبدأ في نظرنا منذ بيعة أحمد بن المتوكل، الذي لقب بالمعتمد في شهر رجب سنة 256هـ/870م، وحكم خلال هذه المرحلة ثلاثة خلفاء، بذلوا جهدا كبيرا لاستعادة سلطة وهيبة الخلافة، والحد من نفوذ وتسلط القادة الأتراك، حيث شهدت هذه المرحلة انتعاش الخلافة العباسية من جديد، وإحياء سلطة الخلفاء العباسيين. وحسب قراءتنا للنصوص التاريخية، وما ذكرناه سابقا، يمكن القول إن السبب في ذلك، راجع إلى رغبة هؤلاء الخلفاء استرداد مقاليد السلطة، وذلك إلى جانب طبيعة شخصيتهم القوية، وبالإضافة إلى جهود الخليفة المهتدي الذي كان شجاعا وداهية، ولم يبد خوفا أو ضعفا أمام سطوة القادة الأتراك، كنا أن الظروف كانت مواتية نظرا لمقتل القادة الأتراك الكبار، الذين استحوذوا على السلطة وأخضعوا الخلفاء والوزراء منذ اغتيالهم للخليفة المتوكل والفتح بن خاقان، بالإضافة إلى فشل هؤلاء القادة وضعفهم أمام الاضطرابات والثورات والأخطار التي واجهت الخلافة، في الوقت الذي برز فيه الأمير الموفق أخ الخليفة المعتمد، والذي يعتبر الحاكم الفعلي في الخلافة، وقد أظهر شجاعة وذكاء وحنكة عسكرية في قيادة الجيش، والقضاء على الاضطرابات والثورات التي هددت الخلافة العباسية.

وفي هذا السياق، نذكر حركة الزنج التي قامت في عهد الخليفة المهتدي سنة 255هـ/869م، وتعود إلى شخص ادعى في بادئ الأمر أنه من النسب العباسي وثار بالبحرين، ولما فشل أتى البصرة وادعى أنه علي بن محمد العلوي، ثم تراجع لما خشي أن يكشف أمره، وادعى أنه يحي العلوي الذي قتل ببلد الجوزجان، واستطاع إقناع بعض القبائل العربية، وبايعه الزنج بدعوة أنه يدعوا إلى تحريرهم من العبودية، وتمكن من السيطرة على نواحي البصرة، واستولى على الأبلة فقتل أهلها وحرقها في رجب سنة 256هـ/870م، وسيطر على الأنهر، وخرب القادسية، وهزم جميع الحملات العسكرية التي خرجت من البصرة، فحرق السفن ونهب الأملاك والأموال وغنم، ودخل مدينة البصرة فقتل وحرق ونهب، ثم حقق انتصارات متتالية على القادة الأتراك. فلما قاد الجيش الموفق أخ الخليفة، استطاع هزيمة صاحب الزنج، واغتنم أموالهم وسفنهم، واسترجع ما سلبوه من بلدان، وقتل محمد البحراني قائد جيش صاحب الزنج. فلما قوي أمر الزنج واستولوا على واسط والعديد من البلاد، بعث الموفق ابنه أبا العباس الذي صار بعد ذلك خليفة ولقب بالمعتضد، حيث قاد الجيش وتمكن من هزيمة الزنج واسترجاع ما أخذوه بما في ذلك مدينة واسط سنة 266هـ/880م، ثم زحف الأمير الموفق على رأس الجيش في ربيع الأول سنة 267هـ/881م، فهزمهم واستولى على مدنهم الحصينة كمدينة المنيعة ومدينة المنصورة، فأمر بهدم الأسوار وردم الخنادق وحرق الدور، ثم سار إلى حصار مدينة المختارة عاصمة الزنج، فدارت معارك قتل فيها الكثير من الونج. ويبدو أن استراتيجية الموفق قامت على طول الحصار، لهذا قام ببناء مدينة سماها الموفقية، أمر بعمارتها وقطع الميرة عن مدينة المختارة، وذلك تزامنا مع تنفيذ عدة هجمات، قتل فيها الكثير منهم، وضيق عليهم الخناق والحصار مع القتل والتشريد، حتى ضعفت قواهم وهممهم فانقلبوا على أميرهم صاحب الزنج وقتلوه، وبعثوا برأسه إلى الموفق في شهر صفر سنة 270هـ/884م[1].

[1] ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 3، ص 376، 377، 378، 382، 383، 384، 385، 390، 391، 399، 400، 401، 408، 409، 410،

كان الأمير الموفق الحاكم السياسي والعسكري الفعلي في الخلافة، لا يتم الأمر إلا بمشورته ورأيه، والانتصارات التي حققها لم تقتصر على القضاء على صاحب الزنج، بل إنه تمكن من إلحاق هزيمة نكراء بيعقوب الصفَّار، الذي استولى على الشرق وتعاظمت قوته، وطمع في بغداد، وأمام فشل القادة الأتراك، خرج إليه الأمير الموفق على رأس الجيش في جمادى الآخرة سنة 262هـ/876م، وهو آنذاك ما يزال مستمرا في قتال صاحب الزنج، ورغم ذلك هزم يعقوب بن الليث الصفَّار في معركة دير العاقول في رجب سنة 262هـ/876م، وغنم عشرة آلاف من الدواب والبغال، ومن المال ما لا يمكن حمله لكثرته، ودفعه للانسحاب جريحا ذليلا، ووضع حدا لطموحاته في إخضاع الخلافة العباسية. ويبدو أن السلطة الفعلية والانتصارات التي حققها شدت من عضد الدولة العباسية، واستمر الأمير الموفق في تحقيق الانتصارات إلى غاية إصابته بالمرض ووفاته في صفر سنة 278هـ/892م، وفي نفس الشهر، اجتمعوا على بيعة ابنه أبي العباس بولاية العهد ولقب بالمعتضد[1].

وقد توفي الخليفة المعتمد على الله أبو العباس أحمد بن المتوكل في رجب سنة 279هـ/893م، وبويع المعتضد أبو العباس أحمد بن الموفق بن المتوكل بالخلافة. وكان الموفق غالبا على الحكم مستبدا به، ولما مات استبد ابنه المعتضد بالحكم من بعده، ولم يكن للخليفة المعتمد أي سلطة إلا اسم الخلافة فقط. فلما ولي المعتضد كان عارفا بشؤون السياسة والسلطة، وقد استبد بالخلافة قبل وفاة عمه المعتمد، وقاد الجيوش من قبل أبيه الموفق وحتى بعد وفاته، وحقق انتصارات كثيرة، فجمع بين الحكمة السياسية والحنكة العسكرية، واستطاع الاستبداد بالسلطة ووضع حد للفوضى والحركات الانفصالية، واجتهد في فرض الأمن والطمأنينة. ومن ذلك، خروج الخوارج على رأسهم محمد بن عبادة المعروف بأبي جوزة سنة 280هـ/894م، واستيلائهم على الكثير من نواحي الموصل، إلا أن الخليفة المعتضد، شدد على قادته بالموصل أن يأتوا به حيا، ولما أسر بعث به إلى للخليفة، فقام بسلخ جلده إلى أن مات. وفي هذه السنة، قام بنو شيبان بالنهب والافساد في منطقة الجزيرة، فخرج إليهم الخليفة المعتضد وشردهم وغنم أموالهم، واضطروا للخضوع والتسليم. وفي سنة 281هـ/895م، خرج إلى قتال أحمد بن حمدون ومن اجتمع معه من القبائل كبني ثغلب، فقتل منهم الكثير، ثم حاصر ماردين ودخلها فغنم وهدم قلعتها. وفي سنة 282هـ/896م، خرج إلى الموصل فغلب على نواحيها، وانهزم حمدان بن حمدون، ونهبت أمواله، وصار طريدا شريدا، ولم يبق له إلا الاستلام. ثم خرج الخليفة المعتمد مرة أخرى لقتال الخوارج بالموصل، فقتل منهم الكثير، وهرب هارون الشاري إلى أذربيجان،وخرج الخليفة المعتضد في أثره إلى أن بلغ مدينة تكريت في سنة 283هـ/897م، ثم تمكن من أسره في شهر ربيع الأول من هذه السنة، وأمر ولاته بالري وأصفهان بالجد في قتال أتباعه، فقتلوا جميعا. وفي ربيع الآخر سنة 286هـ/899م، حاصر مدينة آمد ودخلها[2].

وكان أخطر ما واجه الخلافة العباسية حركة القرامطة، التي تعود جذور نشأتها إلى سنة 281هـ/، حين نزل بالقطيف من البحرين رجل ادعى أنه يحي بن المهدي رسول بعثه المهدي الغائب عند الشيعة، وذكر لهم أنه قرب خروجه، وأول ما أعلن دعوته اتصل بعلي بن المعلَّى بن

[1] ابن الأثير، المصدر السابق، ج 6، ص 333، 334، 460، 461

[2] ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 3، ص 432، 433، 434، 435، 436

حمدان أحد أكبر غلاة الشيعة. وفي سنة 286هـ/899م، أظهر الدعوة أبو سعيد الجنابي ببلاد البحرين، فقتل وسلب ونهب، ثم خرج من القطيف يريد مدينة البصرة وعاث في نواحيها فسادا، فبعث الخليفة المعتضد جيشا بقيادة عباس بن عمر، إلا أنه انهزم وأُسِر، ثم أطلق سراحه، وأحرق الجنابي باقي الأسرى بالنار في شهر شعبان من نفس السنة. فلما زاد فساد القرامطة بالعراق، بعث الخليفة المعتضد جيشا آخر بقيادة شبل من مواليه، إلا أنه اتهزم وقتل، فلم ييأس الخليفة وبعث جيشا آخر بقيادة شبل من موالي أحمد بن محمد الطائي، فتمكن من هزيمة القرامطة وقتل منهم الكثير، ومن نجا منهم تفرق في البلدان. ولما لم يستطع القرامطة، السيطرة على البصرة والكوفة وسائر العراق، توجهوا إلى بلاد الشام، فقام زكرويه بن مهرويه على رأس القرامطة، وقطع الطريق بين العراق والشام، فبث الرعب، وقتل وسبى ونهب الحجاج وسفك الدماء، فخرج إليه الخليفة بجيش انتهى بمقتله وتشريد القرامطة[1]. ونكتشف من هذه الأحداث، أن رغم شدة وبأس القرامطة، إلا أنهم فشلوا في تحقيق هدفهم وهو السيطرة على العراق؛ لأن في هذه المرحلة، كان الخليفة المعتضد مسيطرا على السلطة والجيش، فلو تزامنت أطماع القرامطة مع فترة الخلفاء الضعفاء لسقط العراق والخلافة بأيدهم.

والحقيقة، أن الروايات التاريخية، تعطي صورة واضحة عن الحياة السياسية والعسكرية للمعتضد، الذي قضى حياته في ضبط الإدارة والجيش، ومواجهة الثورات والحركات الانفصالية، وفساد القبائل العربية وعبثها بالأمن، وإن لم يستطع أن يفرض السلطة الفعلية على الشرق، لكنه عين ولاته على أقاليم الري وفارس وما وراء النهر وغيرها، وأمدهم بالجيش وحرضهم على القتال والثبات، واستطاع رغم كل هذه الصعوبات أن يقضي على الأخطار التي هددت الخلافة العباسية. وقد توفي الخليفة المعتضد في ربيع الآخر سنة 289هـ/902م، وبويع ابنه علي بن المعتضد ولقب بالمكتفي، والذي كان قد اكتسب خبرة في ميدان قيادة الجيش وخوض المعارك، حيث اكتسب خبرة في الإدارة والتسيير، وقتال الحركات الخارجة عن سلطة الدولة، وذلك حين ولي ولاية الري، وكذلك ولاية الجزيرة والثغور[2]. وقد سار على سيرة أبيه وجده، حيث لم يمل في مطاردة وقتل الثائرين والانفصالين وكل من تظاهر على الخلافة العباسية، ومن ذلك، أنه جد الطلب في القضاء على محمد بن هارون الذي استولى في بادئ الأمر على الري، ثم صار يتقلب بين أقاليم البلاد الشرقية، ولم يتوقف عن طلبه حتى قضى عليه. ثم إن المكتفي لم يرض باستقلال ابن طولون بمصر، فحشد الجيش ووضع نصب عينيه فرض الخلافة سيطرتها الفعلية على مصر، واستطاع تحقيق ذلك والقضاء على دولة بني طولون سنة 293هـ/906م. وبقي الخليفة المكتفي بالله أبو محمد علي بن المعتضد قائما على الأمر حازما في أمور الدولة إلى أن توفي في جمادى سنة 295هـ/908م[3].

المرحلة الثالثة: تبدأ هذه المرحلة في نظرنا، منذ بيعة جعفر بن المعتضد، الذي لقب بالمقتدر في شهر ذي القعدة سنة 295هـ/908م، والأسباب التي أعادت الخلافة إلى الضعف

[1] ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 3، ص 437، 438؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج 6، ص 521، 522؛ البلخي أبو زيد أحمد، المصدر والجزء السابقان، ص 304

[2] ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 3، ص 435، 439، 441، 442؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج 6، ص 523، 524، 525

[3] ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 3، ص 442، 443، 444، 446

والفوضى، نكتشفها من خلال الروايات التاريخية. من ذلك، أن المقتدر لم يكن يتجاوز 13 عاما حين اجتمع خاصة رجال الدولة، وهم قادة الجيش كالحسين بن حمدان وبدر الأعجمي ووصيف بن صوارتكين، والوزير العباس بن الحسين، والقاضي أحمد بن يعقوب، واتفق هؤلاء في بادئ الأمر على بيعته، ثم اختلفوا، فمال الوزير بعد تردد إلى بيعة المقتدر، وفي المقابل اتفق بعض كبار القادة الأتراك على بيعة محمد بن المعتز ولقبوه المرتضي، وقتلوا الوزير، وبذلك عاد القادة الأتراك للتدخل في شؤون الخلافة وتعيين الخلفاء والوزراء. ويبدو أن تضارب مصالح هؤلاء دفعهم للانقسام إلى فئتين. فئة تضم مؤنس الخادم ومؤنس الخازن وغيرهما تنصر المقتدر، وفئة تضم الحسين بن حمدان وبدر الأعجمي ووصيف بن صوارتكين تنصر ابن المعتز، وأدى ذلك إلى هروب ابن المعتز من بغداد إلى الصحراء، ثم قصد مدينة سامرّا، وذلك خوفا على حياته من أنصار المقتدر، وأدى هذا الاضطراب إلى وقوع الفوضى والقتل والنهب، وعاث العيَّارون والسفل فسادا في المدينة. وكان مؤنس الخازن قد جمع الجيش وقتل وصيف بن صوارتكين، ثم قتل القاضي أحمد بن يعقوب حين رفض بيعة المقتدر، ثم قُبِض على ابن المعتز فعذب وقتل[1].

جلس المقتدر على كرسي الخلافة، واستوز ابن الفرات، الذي تمكن من إجراء سلسلة من الإصلاحات، التي حاول من خلالها الحفاظ على قوة الخلافة وهيبة الخليفة، ولكن سياسته أثارت مخاوف أطراف عدة أرادت أن تكون الخلافة والوزارة مجرد ألعوبة في أيديها، ولهذا أحيكت له مؤامرة، فصودرت أمواله وأموال ابنه وقتل سنة 312هـ/925م[2]. ونعتقد أن ضعف الخليفة وسوء تقديره للأوضاع أدى إلى إذكاء الصراع بين الوزير والقادة الأتراك، وتنافسهم على النفوذ في الخلافة، والاستحواذ على مواردها المالية، وانتهى الأمر بالفوضى ومقتل الخليفة، حيث أفادت الروايات أن المنافسة احتدمت بين الوزير الحسين بن القاسم والقائد مؤنس الخادم، فاستطاع الوزير أن يستبد بالأمر ويصادر ضياعه وأمواله، وذلك في الوقت الذي كان مؤنس الخادم في طريقه للاستيلاء على الموصل، والقضاء على إمارة بني حمدون. أما الوزير فقد تمكن منه خصومه، الذين تمكنوا من إثارة الشبهة حوله، واتفقوا على الإطاحة به من الوزارة، حيث قبض عليه ووضع في السجن في شهر ربيع الآخر سنة 320هـ/933م. أما مؤنس فاستولى على الموصل، ثم عاد لتأديب الخليفة، والاستيلاء على بغداد. وفي هذه الأثناء، اضطربت الأحوال وتخلى عن الخليفة المقتدر الكثير من أتباعه، فَقُبِض عليه وجُرِد من ملابسه وضرب وأهين، ثم قتل وبعث برأسه إلى مؤنس الخادم في شوال سنة 320هـ/933 م. ويبدو أن بعض الروايات، أبدت وجهة نظر، حيث اعتبرت أن سبب الضعف والفوضى، التي آلت إليها الخلافة في عهده ترجع إلى تدخل النساء والصبيان في السلطة، وتقريب أشخاص في البلاط غلب عليهم الطمع[3].

يمكن القول، إن الخلافة في هذه المرحلة، وصلت إلى أعلى مستوى من الضعف والفوضى والاستخفاف بمنزلة الخلفاء، وقد وقفنا على ما آل إليه الخلفاء من الضرب والتعذيب والإهانة والإذلال ثم القتل. وإذ نصف هذا الوضع المأساوي، نستشهد بمقالة المؤرخ ابن الأثير الذي قدم

[1] ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 3، ص 447، 448
[2] ابن الطقطقا، المصدر السابق، ص 265، 266
[3] ابن الأثير، المصدر السابق، ج 6، ص 766، 767، 771

وصفا دقيقا، حين قال:"... واخرقت الهيبة وضعف أمر الخلافة حتى صار الأمر إلى ما نحكيه"[1]. وعلاوة على ذلك، لقي الخلفاء الذين اعتلوا كرسي الخلافة نفس المصير. الخليفة محمد بن المعتضد ولي الخلافة ولقبوه القاهر بعد مقتل الخليفة المقتدر، ورغم أنه تمكن من قتل مؤنس المظفر، وبليق وابنه علي بن بليق، والنوبختي، وذلك في شهر شعبان سنة 321هـ/934 م، إلا أنه لم يمض من حكمه سوى ما قارب العامين، حتى قام القادة الأتراك بخلعه من الخلافة سنة 322هـ/935 م، ثم قاموا وسمَّلوا عينيه، وعذب في السجن، وآل به الأمر بعد ذلك إلى التسول من الناس بجوار الجامع. أما أحمد بن المقتدر بن المعتضد لقب بالراضي بالله، وبويع بالخلافة بعد خلع القاهر سنة 322هـ/935 م، وحكم إلى غاية سنة 329هـ/941 م، ويمكن اعتباره الخليفة الوحيد خلال هذه المرحلة، الذي اختار من يلي الخلافة بعده، وذلك حين اشتد عليه المرض، وأيقن أنه ميت، فجمع الوزراء ورجال الدولة من أصحاب الدواوين والقضاة، وكذلك العلويين والعباسيين، فاختاروا إبراهيم بن المقتدر ولقبوه المتقي، وبايعوه بعد موت الراضي بالله في شهر ربيع الأول 329هـ/941 م. وكان الخليفة المتقي ضعيفا، خضع لسطوة القائد توزون، حيث عينه بمنصب أمير الأمراء سنة 331هـ/943 م. وقد اضطر الخليفة المتقي للهرب رفقة أهله إلى الموصل في ربيع الآخر سنة 332هـ/944 م. وأما أوضاع البلاد فقد اضطربت، وانتشرت الفوضى ونهبت دار الخلافة، ووقع السلب والنهب والقتل ببغداد. فلما هرب الخليفة المتقي، وضع الأمير التركي توزون مكيدة لاستدراجه، وذلك أنه وعده وأعطاه الأمان وأشهد على ذلك القضاء ووجوه الناس، فلما عاد قبض عليه، وسمَّل عينيه، وألقى به في السجن، وخلعه من الخلافة في آخر محرم سنة 333هـ/945 م، وبايع عبد الله بن المكتفي ولقبه بالمستكفي. وفي محرم سنة 334هـ/946 م، توفي الأمير توزون، فولي من بعده كاتبه ابن شيرزاد في منصب أمير الأمراء، ولم تمض إلا بضع شهور، حتى استولى أحمد بن بويه على بغداد في جمادى الأولى سنة 334هـ/946 م، وأقدم أحمد بن بويه بعد أن لقبه الخليفة بمعز الدولة على إهانة الخليفة المستكفي، وسمَّل عينيه ووضعه في السجن، وبذلك انتهت المرحلة الأخيرة من فترة الفوضى التي عرفتها الخلافة العباسية، وانتقلت إلى عصر آخر من استبداد الدول بالخلافة[2].

2_ الدويلات المستقلة عن الخلافة العباسية

تفكك العالم الإسلامي إلى عدة دول، لا تخضع للخلافة العباسية، إلا من حيث الاسم فقط، حيث لا سلكة للخليفة على الملوك والأمراء الذين سيطروا على أرض الخلافة واتخذوها ملكا لهم، ولا يربطها بالخليفة العباسي إلا الدعاء له على المنابر، وذلك بهدف كسب الشرعية فقط، بل إن بعضهم طمع في دار الخلافة، ومنهم من خالف مذهب الخلافة، فسعى للقضاء عليها تماما. والآن، نعرض جملة من هذه الدول على النحو الآتي:

الدولة الطاهرية (205-259هـ/820-872م)

[1] ابن الأثير، المصدر السابق، ج 6، ص 771

[2] ابن الطقطقا، المصدر السابق، ص 276، 284، 287؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج 6، ص 786؛ ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 3، ص 508، 515، 519، 520

كان طاهر بن الحسين عاملا على منطقة بوشنج، فستعان به الخليفة المأمون في صراعه مع أخيه الأمين، فحقق طاهر بن الحسين انتصارات متتالية على جيوش الخليفة الأمين، وقتل قواده، أمثال علي بن عيسى سنة 195هـ/810م. وقد استولى على الأمصار حتى وصل إلى بغداد وفرض عليها الحصار، وتمكن من الاستيلاء عليها وقتل الخليفة الأمين سنة 198هـ/813م[1].

وقد صفت الخلافة للمأمون، الذي كافأ طاهر بن الحسين بتعيينه واليا على الجزيرة، وصاحب الشرطة ببغداد. وكان طاهر بن الحسين طامعا في ولاية خرسان، لكن الخليفة المأمون لم يكن راغبا في ذلك، خوفا من تطلعاته وأطماعه السياسية، ولكن طاهر بن الحسين كان متمسكا بطلبه ملحا على الخليفة، فاستجاب له وعينه واليا على خرسان وجمع له الشرق بأكمله تحت ولايته سنة 205هـ/820م، إلا أن طاهر بن الحسين أعلن الاستقلال عن الخلافة، واتخذ مدينة نيسابور عاصمة، وصارت الدولة الطاهرية أول دولة مستقلة عن الخلافة العباسية، لا تتبع لها إلا بالاسم، بل إن جرأة طاهر بن الحسين بلغت إلى حد اتخاذه قرارا يقضي بإعلان الاستقلال التام، والدعاء لنفسه وإسقاط الدعاء عن الخليفة من على المنابر، لولا أن عاجلته المنية سنة 207هـ/822 م[2].

وكانت وصيته لولي عهده تتمحور حول العدل، والعطاء، والإصلاح، والاهتمام بالجند، وتقدير أهل الصلاح، وتقريب الفقهاء وأهل العلم والمعرفة. فلما توفي خلفه ابنه طلحة بن طاهر الذي سار على نهج أبيه، واستمر في طاعة الخليفة المأمون إلى أن توفي سنة 213هـ/828م، فخلفه أخوه عبد الله بن طاهر، الذي عظمت الدولة في عهده، وفرض نفوذه على سائر بلاد الشرق، حتى بلغ بلاد الهند، وحقق نجاحا كبيرا في الإصلاحات التي أعلنها، وتمكن من طرد الخوارج من خرسان، وجمع العلماء والفقهاء وطلب منهم تأليف كتاب يكون مرجعا للناس، يتضمن ملكية الأرض، وأساليب الفلاحة والري[3].

وكان عبد الله بن طاهر قد أثبت الولاء للخليفة العباسي، وأظهر شجاعة وفطنة، وذلك حين ولاه الخليفة المأمون على الرقة ومصر وكلفه بالقضاء على نصر بن شيث سنة 207هـ/822م، فاستطاع بجدارة إدارة الولاية وأسر نصر ين شيث سنة 209هـ/824م، كما استعان به الخليفة المأمون في القضاء على المازيار، فأوكل الجيش لعمه الحسن بن الحسين، الذي استطاع الاستيلاء على طبرستان وأسر المازيار سنة 224هـ/839م. وكان عبد الله بن طاهر شديدا حازما مع ولاة وعمال الأقاليم، وقد وافته المنية سنة 230هـ/840م، وتولى من بعده طاهر بن عبد الله، وحاول القضاء على الفتن وأطماع الولاة الاستقلال بولايتهم حتى توفي سنة 248هـ/862م. فلما توفي خلفه محمد بن طاهر بن عبد الله، وكان ضعيفا ماجنا، ساد في عهده الفوضى وانعدام الأمن والاضطراب والانقسامات، فاستنجد الناس بيعقوب بن الليث الصفّار، الذي تمكن من إخضاع خرسان واحتلال مدينة نيسابور سنة 254هـ/867م، وأسر محمد بن طاهر ووضعه في السجن، وبذلك انقرضت دولة الطاهريين[4].

---

[1] عصام الدين الفقي، الدول المستقلة في المشرق الإسلامي من مستهل العصر العباسي إلى الغزو المغولي، ط 1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1999، ص 32

[2] ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 3، ص 314، 315

[3] عصام الدين الفقي، المرجع السابق، ص 33

[4] ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 3، ص 315، 316، 332، 333، 334، 367

الدولة الصفارية (254-290هـ/867-903م)

يعود مسقط رأس يعقوب بن الليث الصفّار إلى قرية قرنين، إحدى قرى إقليم سجستان، وكان صفّارا ويعني ذلك أنه عمل في إزالة الصدأ من الأسلحة وطلائها، ثم انضم إلى قطاع الطرق، ثم تجند في المطوعة، الذين حملوا على عاتقهم فرض الأمن في سجستان، ثم صار أحد قادة هذه المجموعات. فلما اشتهر يعقوب بمقدرته على الانضباط، والقدرة على التحكم في الرجال، وفرض الاستقرار والطمأنينة، وإنهاء الفوضى والاضطرابات، استنجد به سكان سجستان، فاتخذها ذريعة واستولى على مدينة بست، وذلك بعد فرار واليها نصر بن صالح، ثم استولى على سائر بلدات إقليم سجستان، ثم غزا غزنة وخرّبها، ثم استولى على زابلستان، ثم سار واستولى على كابل، ثم استولى على هراة وبوشنج. فلما تمكن يعقوب الصفّار من إخضاع هذه البلدان، استنجد به سكان خرسان، وذلك بسبب انعدام الأمن وانتشار الفوضى والسلب والنهب، فتستغل تلك الظروف واستولى على خرسان، وقضى على الدولة الطاهرية، وقبض على آخر أمرائها محمد بن طاهر بن عبد الله سنة 254هـ/867م، ثم استولى على مدينة آمل، وفارس، والأهواز، وشيراز، واستولى على بلخ سنة 258هـ/872م. وقد شجعته الانتصارات المتتالية التي حققها على التوجه نحو الغرب، فاستولى على إمارة العلويين بطبرستان وجرجان وخربها، في حين تمكن أميرها الحسن بن زيد من الهرب سنة 260هـ/874م[1].

يبدو أن نجاح يعقوب الصفّار في الاستيلاء على جميع ولايات الشرق، والقضاء على الدولة الطاهرية دفعه للتوجه نحو بغداد، حيث بعث بالهدايا إلى الخليفة المعتمد، وكان من ضمنها مسجدا مصنوعا من الفضة يسع لحوالي 15 مصليا، وذلك سعيا منه لإرضاء الخليفة والحصول على مرسوم يضفي الشرعية على دولته، وسائر البلدان التي ملكها. وفي سبيل تحقيق أهدافه، تعهد للخليفة بدفع أموال تقدر بحوالي 5 آلاف درهم كل عام، فما كان من الخليفة، إلا أنه أصدر مرسوما يقر فيه بملكيته على الأراضي التي استولى عليها. أما يعقوب الصفّار فكان طموحه أكثر بكثير، حيث قرر غزو دار الخلافة، وسار اتجاه بغداد، فخرج إليه الجيش العباسي بقيادة الأمير الموفق أخ الخليفة، فاقتتلا في معركة دير العاقول التي انتهت بانهزام يعقوب الصفّار وإصابته بجروح بليغة، اضطر على إثرها للانسحاب إلى نيسابور، فوافته المنية متأثرا بجراحه سنة 266هـ/878م[2].

وقد تولى الحكم من بعده أخوه عمرو بن الليث، الذي وجد خزينة الدولة مليئة بالأموال، وقد سعى هو الآخر إلى إرضاء الخليفة، وذلك عن طريق إعلان الولاء، وإظهار الود وإرسال الهدايا، وقد دفع هذا السلوك الخليفة إلى إصدار مرسوم يعينه خلفا لأخيه، ويعينه واليا على شرطة بغداد، وجميع ما بيده من بلاد الشرق سنة 276هـ/889م، إلا أن طمع عمرو الصفّار بلغ به إلى مطالبة الخليفة بإقرار ضم بلاد ما وراء النهر، فوافق الخليفة، ورفض الأمير إسماعيل بن أحمد الساماني تسليمها، وبعد عدة مراسلات بين الطرفين انتهت باندلاع الحرب سنة 288هـ/900م، فانهزم عمرو الصفّار ووقع أسيرا في يدي إسماعيل بن أحمد الساماني، الذي بعثه إلى الخليفة المعتضد

[1] عصام الدين الفقي، المرجع السابق، ص 35
[2] المرجع نفسه، ص 35، 36

ببغداد، حيث توفي بها سنة 289هـ/901م، فخلفه طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث، واستحوذ على زمام الأمور سبك السبكري، الذي أقدم على سجن الأمير طاهر وأخيه يعقوب سنة 290هـ/903م، ثم بعث بهما إلى بغداد. وفي سنة 297هـ/909م، قاد الليث بن علي بن الليث الصفّار حملة عسكرية على السبكري لاسترجاع الدولة، ولما انهزم السبكري استنجد بالخليفة المقتدر، فبعث الخليفة جيشا بقيادة مؤنس الخادم، فاستولى على فارس وزحف باتجاه الليث الصفّار، وتمكن من إنقاذ السبكري، الذي انقلب على الخليفة ورفض دفع المال، ثم اضطر إلى الهرب. أما إسماعيل بن أحمد الساماني فقد استولى على سجستان وأسر السبكري، ومحمد بن علي بن الليث، وبعث بهما إلى بغداد سنة 297هـ/910م، وبذلك سقطت الدولة الصفّارية[1].

الدولة السامانية (261-389هـ/874-999م)

يرجع نسب السامانيين إلى بهرام جور، وهم من أعرق وأشرف العائلات. وكان أسد بن سامان له أربع أبناء، وهم نوح، وأحمد، ويحي، وإلياس. وكان رافع بن الليث بن نصر بن سيار، قد ثار بسمرقند، فخرج الخليفة هارون الرشيد لقتاله، وقد قام الأمراء السامانيين على تقديم الدعم إلى الخليفة في قتاله رافع بن الليث، وأظهروا شجاعة وذكاء لا نظير له. وكان هرثمة بن أعين قد سار إلى العراق، وأما الخليفة فسار إلى سمرقند، وهناك قدم الأمراء السامانيين الدعم والمؤن إلى الخليفة سنة 192هـ/807م. فلما تولى الخلافة المأمون أكرمهم، حيث عين الإخوة السامانيين الأربعة، نوح تولى إمارة سمرقند، وأحمد تولى وفرغانة، ويحي تولى الشاش وأشروسنة، وإلياس تولى هَرَاة. ولما مات نوح، أقدم أخوه أحمد بن سامان على ضم سمرقند إلى ولايته، وحين توفي خلفه ابنه نصر سنة 251هـ/865م، وكانت بخارى قد شهدت اضطرابات وفوضى، دفع بعض أعيانها إلى الاستنجاد بنصر الساماني بسمرقند، فبعث أخاه إسماعيل بن أحمد الساماني إلى بخارى، فتمكن من فرض الأمن، وكان شجاعا عادلا أحبه سكان بخارى، وطلبوا من نصر الساماني تعيينه واليا عليهم، فاستجاب لهم، وذلك سنة 260هـ/874م. وفي هذه السنة، أصدر الخليفة المعتمد مرسوما يقضي بتعيين الأمير نصر الساماني حاكما على بلاد ما وراء النهر[2].

يبدو أن الخليفة أراد استغلال الصراع لصالح الخلافة، وإضعاف جميع الأطراف، من جهة يتخلص من الصفّارين الطامحين للوصول إلى بغداد، ومن جهة أخرى يدعم السامانيين كقوة ناشئة لطالما كانت في خدمة الخلافة العباسية، حيث أصدر الخليفة قرارا يدعو فيه إسماعيل بن أحمد الساماني أن يكون الدعاء على المنابر لكلا من الخليفة ونصر بن أحمد الساماني، ويسقط يعقوب بن الليث الصفّار من الخطبة. هذا يعتبر إعلانا رسميا بقيام الدولة السامانية. وقد وقع خلاف بين الأميرين السامانيين، وذلك بسبب عدم قدرة إسماعيل بن أحمد أمير بخارى دفع خمسمائة ألف دينار سنويا لأخيه الأمير نصر بن أحمد بسمرقند، نظرا لكثرة النفقات على الجيش وفرض الأمن. كان هذه الخلاف سببا في وقوع معركة بين الأخوين سنة 272هـ/885م، انتهت بعقد الصلح، الذي نص على أن يدفع إسماعيل خراج بخارى لأخيه. فلما امتنع إسماعيل عن دفع المال مرة أخرى، سار نصر على رأس الجيش لعزل أخيه، أدى ذلك إلى وقوع معركة بين الفريقين سنة

[1] عصام الدين الفقي، المرجع السابق، ص 36، 37، 38

[2] عطية القوطي، تاريخ الدول المستقلة في الشرق عن الخلافة العباسية، مكتبة دار النهضة العربية، 1993، ص 54، 55، 56؛ عصام الدين الفقي، المرجع السابق، ص 41؛ ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 3، ص 389

275هـ/288م، انتهت بانتصار إسماعيل وأسر أخيه نصر، إلا أن إسماعيل أحسن لأخيه وأطلق سراحه وأكرمه، وجدد البيعة له. وفي سنة 279هـ/892م، توفي نصر بعد أن أوصى بالحكم لأخيه إسماعيل، وقد أصدر الخليفة المعتضد مرسوما يقر فيه سلطة إسماعيل بن أحمد على بلاد ما وراء النهر سنة 280هـ/893م[1].

تجدر الإشارة إلى أن الخليفة حاول استغلال طمع عمرو بن الليث الصفّار، حيث سمح له بغزو بلاد ما وراء النهر، ويرمي بذلك إلى إضعاف الصفّارين، وبالفعل تكبدوا هزائم متتالية سقط على إثرها عمرو بن الليث الصفّار أسيرا في يد إسماعيل بن أحمد الساماني نواحي بلخ سنة 287هـ/900م، وقد أكرمه وأحسن إليه، ثم بعثه بطلب من الخليفة إلى بغداد، فبقي سجينا إلى أن قتل سنة 289هـ/902م. بناءً على الانتصارات التي حققها إسماعيل بن أحمد، صار يملك بلاد ما وراء النهر، وخرسان، وجرجان، وبلاد السند، وحلوان، وقد أقر الخليفة له بذلك. والجدير بالذكر، أن إسماعيل تمكن من توسيع دولته واتخذ من بخارى عاصمة لها، واستمر في التوسع وتثبيت أركان الدولة حتى توفي سنة 295هـ/907م، وخلفه ابنه أحمد بن إسماعيل الذي سار على سيرة أبيه، فقام بفرض العدالة والقضاء عل الثورات واستتباب الأمن، إلا أنه فشل في القضاء على الأمير حسن بن علي الزيدي مؤسس الدولة الزيدية بطبرستان وبلاد الديلم. ثم إن أحمد بن إسماعيل ضم سجستان، في حين استولى الحسين بن العلاء على طبرستان واتخذها إمارة له. علاوة على ذلك، لم تقتصر إنجازات أمد بن إسماعيل على الجانب السياسي والعسكري، بل إن إصلاحاته نالت قبولا واسعا في أوساط المجتمع، كما أنه شجع العلم واهتم بالعلماء، وأمر بفرض اللغة العربية وجعلها محل اللغة الفارسية، وكان يهوى الصيد، واستمر في الحكم إلى أن اغتاله غلمانه سنة 300هـ/972م، وبايعوا ابنه نصر بن أحمد الذي لم يتجاوز عمره 8 سنوات. قلما بويع نصر بن أحمد، انتقم لأبيه وقام بقتل الغلمان، ثم استقر بهراة مدة، ثم انتقل إلى بخارى[2].

وقد ثار عليه عمه وابن عمه ببخارى وخرسان، فتمكن من القضاء عليهما، كما تمكن من إنهاء الاضطرابات وفرض سلطته عل بلاد ما وراء، وجرجان، والعراق. وكان نصر بن أحمد في خدمة الخليفة، حيث سخر كافة إمكانيات دولته في القضاء على أعداء الخلافة العباسية، وبعد مسيرة حافلة بالإنجازات تم اغتياله في شهر رمضان سنة 330هـ/941م، وخلفه ابنه نوح بن نصر، وفي عهده زادت أطماع الأمراء والولاة والقواد في الاستقلال بالولايات والأمصار. فلما رأى نوح بن نصر الأمر قد استفحل، أعد الجيش وقرر إخماد الحركات الانفصالية، ونجح في ذلك، حيث استرجع نيسابور وقبض على أبي علي الأصفهاني، إلا أن أبا إسحاق أحمد استطاع هزيمة نوح بن نصر والاستيلاء على بخارى عاصمة الدولة، لكن الجند ثاروا على أبي إسحاق، وأعلنوا نصرتهم للأمير نوح بن نصر، وبذلك استرجع بخارى، ورغم أن ركن الدولة البويهي فشل في الاستيلاء على الري، إلا أن البويهيين صاروا يشكلون خطرا على الدولة، وذلك حين ضعفت الدولة السامانية، بسبب الانقسامات وطمع القادة في الاستقلال بالأقاليم، مثلما فعل القائد أبو علي الذي استولى على خرسان، وخرجت باقي الأقاليم عن سلطة السامانيين، حتى لم يبق لهم إلا بلاد ما وراء النهر. وفي هذه الفترة، برز القائد التركي ألبتكين، وقد توفي نوح بن نصر سنة

[1] عصام الدين الفقي، المرجع السابق، ص 42، 43؛ عطية القوطي، المرجع السابق، ص 57

[2] عصام الدين الفقي، المرجع السابق، ص 43، 44؛ عطية القوطي، المرجع السابق، ص 58، 59

343هـ/954م، وخلفه ابنه عبد الملك بن نوح الذي حكم مدة 7 سنوات، وتوفي سنة 350هـ/961م، وخلفه ابنه المنصور بن عبد الملك الذي حكم 5 سنوات، وتميز عهده بالعدل والإصلاح، وتوفي سنة 366هـ/976م. وقد واجهت الدولة السامانية خطر أطماع دولة الأتراك القرخانيين، إلا أن الدولتين الخاقانية والغزنوية تمكنتا من القضاء على الدولة السامانية سنة 390هـ/999م[1].

الدولة الغزنوية (582-351هـ/962-1186م)

اشتق اسم الدولة من اسم عاصمتها مدينة غزنة، ويرجع الفضل في نشأتها إلى ألبتكين الذي كان من أعظم قادة الجيش في الدولة السامانية، وقدم خدمات جليلة للساماني‍ين، كما أنه تولى منصب حاجب الحجاب للأمير عبد الملك بن نوح الساماني، ثم ولي خرسان، وقد أدي توتر العلاقة بين الأمير منصور بن نوح الساماني وألبتكين، إلى إصدار قرار بعزله عن ولاية خرسان وبعث جيشا للقبض عليه، إلا أن ألبتكين تمكن من الاستيلاء على غزنة، ثم استولى على إقليم زابلستان، وأعلن قيام دولته بزابلستان واتخذ مدينة غزنة عاصمة لها، ولم يبق في الحكم إلا قليلا حتى توفي سنة 352هـ/963م، وخلفه ابنه أبو إسحاق إبراهيم، الذي ثار عليه سكان غزنة وطردوه، فاستعان بالأمير منصور بن نوح فأجاب بشرط العودة إلى النفوذ الساماني، وبذلك استرجع الساماني‍ون نفوذهم على غزنة[2].

وقد توفي أبو إسحاق إبراهيم ولم يترك وريثا، فاتفقوا على بلكاتكين حاكما، فضرب النقود باسمه سنة 359ه/969م، ثم خلفه بيرى فثاروا عليه الجند وخلعوه وولوا على البلاد سبكتكين سنة 366هـ/976م، وقد اكتسب ثقة ومحبة قادة الجيش والناس، بل إن الحليفة يعث له بمرسوم تعيينه حاكما على غزنة وما ملك من البلاد ولقبه بناصر الدولة. وقد شرع سبكتكين في توسيع الدولة حيث بسط نفوذه على قصدار ثم خرسان، واستولى على الكثير من القلاع والحصون والبلدات في الهند، واتخذ من مدينة بيشاور مركزا لها، وقد استمر على هذه السياسة إلى أن توفي سنة 387هـ/997م، وخلفه ابنه محمود بن سبكتكين الذي سار على سياسة أبيه، وفي هذا الوقت كانت الدولة السامانية ضعيفة، حيث تمرد عليها أبو علي أحد كبار القادة وأراد الانفصال بخرسان، فاستنجد الأمير الساماني نوح بن منصور بالأمير محمد بن سبكتكين الغزنوي، فلبى الدعوة و ألحق الهزيمة بالمتمردين، واسترجع خرسان، فمنحها له الأمير الساماني. فلما توفي الأمير منصور الساماني خلفه أخوه عبد الملك وكان صغيرا فاضطربت الأوضاع، وتكالب الأمراء والقادة على الولايات والأقاليم وخاصة خرسان، فنهض محمد الغزنوي وضم رسميا خرسان إلى دولته[3]. وفي سنة 389هـ/998م، استولى الأتراك الخاقان على جزء من بلاد ما وراء النهر ودخلوا مدينة بخارى عاصمة الدولة السامانية، وقبضوا على الأمير عبد الملك بن نوح آخر أمرائها، وأما الجزء الآخر استولى عليه الغزنويون[4].

كان الأمير إسماعيل بن نوح الساماني الملقب بالمنتصر في السجن، إلا أنه تمكن من الهرب سنة 390هـ/990م، وحاول إحياء الدولة السامانية، فاستولى على خوارزم، ثم استرجع

[1] عصام الدين الفقي، المرجع السابق، ص 45، 49
[2] عطية القوطي، المرجع السابق، ص 77، 78؛ عصام الدين الفقي، المرجع السابق، ص 101، 102
[3] عصام الدين الفقي، المرجع السابق، ص 102، 103، 104
[4] ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 3، ص 546

بخارى، وذلك بعد انتصاره عل إيلك خان ملك الأتراك الخاقانيين، ثم استرجع ترمذ، ثم اتجه إلى الغزنويين فاسترجع نيسابور، وبمساعدة الأمير قابوس حاكم طبرستان، تمكن من الاستيلاء على الرّي، ثم حاول طرد الخاقانيين من بلاد ما وراء النهر، لكنه انهزم واتجه إلى مرو، مما أثار مخاوف محمود الغزنوي فخرج إلي قتاله، وبسبب ضعف قوته وقلة أتباعه اضطر للاختباء في إحدى القبائل، إلا أنهم قتلوه تقربا من الأمير محمود الغزنوي، وكانت هناك محاولات عديدة للانفصال عن الدولة الغزنوية، لكن جميعها باءت بالفشل. وفي سنة 420هـ/1029م، استولى الغزنويون على الرّي وهمذان وأصفهان، ورغم جميع محاولات حكام الدول كالبويهيين وحاكم طبرستان استرجاع ما فقدوه، إلا أنهم انهزموا جميعا. وكانت هناك محاولات من الخلفاء الفاطميين استمالة السلطان محمود الغزنوي إلى التشيع، لكنه رفض وغضب وهدد الفاطميين، ثم أعلن عن تمسكه بمذهبه السني والولاء للخليفة العباسي، ومن ذلك مراسلة الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (386-411هـ/996-1021م) سنة 404هـ/1013م، والخليفة الفاطمي الظاهر (411-427هـ/1021-1036م). وقد توفي السلطان محمود الغزنوي سنة 421هـ:1030م، فخلفه ابنه محمد وكان أصغر عمرا من أخيه مسعود، فأبى مسعود بن محمود أن يخضع لسلطانه، وبذلك استقل بالرّي وجبال أصفهان، وما زاد من طموحه كتاب الخليفة إليه يعترف بسلطانه خلفا لأبيه، فسار واستولى على خرسان. وقد أحسن استغلال رسالة الخليفة، وذلك حين بعث نسخا منها إلى جميع الأقاليم والأمصار، وذلك سعيا منه إضفاء شرعيه على حركته لتولي ملك الدولة خلفا لأبيه[1].

وقد نجح مسعود في عزل أخيه وتتويج نفسه سلطانا على الدولة الغزنوية في سنة 422هـ/1031م، وتمكن من استتباب الأمن وفرض سلطته على جميع ولايات الدولة، وفي سنة 433هـ/1042م، سار بالجيش كعادته إلى الهند، إلا أن هناك مؤامرة دبرت لاغتياله من قبل أخيه محمد وأبنائه، حيث ثار عليه غلمانه وعزلوه ثم قتلوه عند نهر سيحون، واسترجع محمد الحكم بعد اغتيال أخيه. وفي هذا الوقت، كان مودود بن مسعود يقاتل السلاجقة بخرسان، ولما علم بمقتل أبيه عاد إلى غزنة، ودارت معارك بينه وبين عمه محمد وأبنائه، فهزمهم وقتلهم، وصار سلطان الدولة في نفس السنة، وقد استمر ببسط سلطان دولته على جميع الولايات حتى وفاته سنة 441هـ/1050م، وخلفه ابنه مسعود الثاني وكان صغيرا فعزله علي بن مسعود، ولكن أطماع الأمراء الغزنويين والقادة أدى إلى صراع مرير حول السلطة، واستمر حتى بعد وفاة السلطان مسعود بن إبراهيم بن مسعود سنة 508هـ/1114م، وذلك حين ولي ابنه أرسلان شاه ثار عليه أخوه بهرام شاه الذي استعان بالسلطان السلجوقي سنجر، فدخل السلاجقة غزنة ونصبوا بهرام سلطانا عليها، وبذلك فتح الباب لتدل السلاجقة في الدولة الغزنوية، ووقعت غزنة بين أطماع الغور من جهة وأطماع السلاجقة من جهة أخرى، ولما توفي بهرام سنة 512هـ/1118م، خلفه ابنه خسرو شاه، ورغم محولات استرجاع نفوذ الدولة من جديد، إلا أن الغور تمكنوا من التحكم في غزنة وباقي الأمصار، وأسروا خسرو شاه وابنه ووضعوهما في السجن سنة 582هـ/1186م، وبذلك سقطت الدولة الغزنوية على يد ملك الغور[2].

[1] عصام الدين الفقي، المرجع السابق، ص 105، 106، 107، 108

[2] عطية القوطي، المرجع السابق، ص 82، 83، 84، 85، 86، 87

3_الخلافة العباسية خلال عهد الدولتين البويهية والسلجوقية (590-334هـ/946-1194م)

الخلافة العباسية خلال عهد الدولة البويهية (447-334هـ/932-1056م)

الحديث عن الخلافة العباسية خلال هذا العهد، يقودنا إلى تتبع نشأة وتطور الدولة البويهية وأوضاع الخلافة في خضم سلطانها. نقول، إن نسب بني بويه يرجع إلى بهرام جور، أحد ملوك الفرس، وهم من بلاد الديلم، وكانوا قد انضموا إلى جيش مَاكَان بن كالي الديلمي، حيث تولوا مناصب رفيعة في الجيش بفضل شجاعتهم وقدرتهم العسكرية، ولما انتصر مرداويج بن زيار على مَاكَان، انتقلوا إلى خدمة مرداويج وانظموا إلى جيشه، ونظرا لأطماع بني بويه وطموحهم، انتقل علي بن بويه إلى بلاد فارس واستولى على أرجان سنة 321هـ/933م، وفي السنة الموالية استولى على شيراز. أما أحمد بن بويه استولى على كرمان. وفي سنة 333هـ/944م، قُتل مرداويج مما سمح للبويهيين بالسيطرة التامة على بلاد الجبل، وتمكن علي بن بويه من احتلال فارس. وفي الوقت الذي حكم فيه حسن بن بويه بلاد الجبل سنة 334ه/945م، اتجه أحمد بن بويه إلى بغداد واستولى عليها، وما كان على الخليفة المستكفي إلا أن أصدر مرسوما يعينه في منصب أمير الأمراء، ولقبه بمعز الدولة، ولقب علي بن بويه بعماد الدولة، ولقب حسن بن بويه ركن الدولة، وضربت السكّة باسمهم. فلما تمكن معز الدولة البويهي من السيطرة على مدينة بغداد، لم يبق إلا قليلا حتى أقدم على إهانة الخليفة المستكفي وتعذيبه وسمّل عينيه، ثم حبسه وخلعه من الخلافة، وبقي معتقلا إلى أن توفي سنة 338هـ/949م[1].

وقد قام معز الدولة بتنصيب أبي القاسم الفضل بن المقتدر ولقبه بالمطيع، وكان قبل ذلك ينوي القضاء على الخلافة، ونقل بغداد وجميع البلاد إلى طاعة الشيعة، ولم يبق للخلافة شيء، ونستشهد في ذلك بأدق وصف للمؤرخ ابن خلدون عبد الرحمن، الذي قال:"... إنهم كانوا يفردونهم بالسرير والمنبر والسكّة والختم على الرسائل والصكوك والجلوس للوفد وإجلالهم في التحية والخطاب، وكل ذلك طوع القائم على الدولة، وكان يفرد في كل دولة بني بويه والسلجوقية بلقب السلطان مما لا يشاركه فيه أحد، ومعنى الملك من تصريف القدرة وإظهار الأبهة والعز حاصل له دون الخليفة وغيره، وكانت الخلافة حاصلة للعباسي المنصوب لفظا مسلوبة معنى، والله المدّبر للأمور لا إله غيره"[2]. وقد مات معز الدولة في سنة 366هـ/967م، وخلفه ابنه عز الدولة بختيار في حكم كرمان والعراق وخوزستان، لكنه فشل في ضبط الجيش وفرض الأمن، فاستنجد بابن عمه عضد الدولة الذي استغل الفرصة واستولى على جميع أملاك بني بويه، واستطاع توحيد الدولة البويهية[3].

الأمر المثير للاهتمام خلال هذه الفترة، أنه لم يعد هناك أي قيمة للخلافة والوزارة إلا بالشكل فقط، حيث كان يتعرض الخلفاء والوزراء للخلع، والإهانة، والضرب، وسمّل العينين، والتعذيب، والسجن، فمثلا السامري أبو الفرج محمد بن علي وزير الخليفة المستكفي، لم يكن له

---

[1] ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 3، ص 490، 491، 492، 506، 516، 521، 522؛ ابن الطقطقا، المصدر السابق، ص 287

[2] ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 3، ص 522، 523

[3] عصام الدين الفقي، المرجع السابق، ص 66

حكم أو تدبير، ولم يبق في الوزارة إلا قليلا حتى ألقي عليه القبض. أما الخليفة المتقي خلع نفسه خوفا من تهديد سبكتكين حاجب معز الدولة، كما أن الخليفة الطائع تعرض للإهانة والتهديد، ثم قبض عليه وخُلِع من الخلافة سنة 381هـ/992م. وقد أعطى المؤرخ ابن الطقطقا (ت 709هـ/1309م)، وصفا دقيقا لأحوال الخلافة والوزارة على العهد البويهي، بقوله:" ثم اضطربت أحوال الخلافة ولم يبق لها رونق ولا وزارة وتملك البويهيون، وصارت الوزارة من جهتهم والأعمال إليهم، وقُرّر للخلفاء شيء طفيف برسم إخراجاتهم[1]. علاوة على ذلك، المؤامرات السرية التي كانت تحاك بين الخليفة الفاطمي العزيز بالله (386-365هـ/975-996م)، وعضد الدولة عن طريق مراسلات تمت بين الطرفين أبدى فيها عضد الدولة عن حبه للفاطميين وموالاته لهم، وبغضه للعباسيين، ولم يكتف بذلك بل وضع خطة خبيثة، تقضي بزواج الخليفة العباسي الطائع لله (363-381هـ/974-991م) من ابنته، طمعا في حال أنجبت، يولي ابن ابنته الخلافة، فتكون الخلافة خالصة للبويهيين ومذهبهم الشيعي[2].

وقد سعى عضد الدولة إلى توسيع نفوذ الدولة البويهية، وأدى ذلك إلى وقوع معركة بينه وبين قابوس بن شمكير وفخر الدولة، فهزمهما واستولى على طبرستان وجرجان، كما أنه أجرى إصلاحات هامة على منظومة الرّي، والعمارة، وأنشأ السواقي بفارس، وبيمارستان ببغداد، وبنى سورا للمدينة المنورة، وأنشأ مدينة سوق الأمير بنواحي شيراز، وشيد قصرا فخما ببغداد، وحبس الأوقاف على البيمارستان، مما ساهم ذلك في الازدهار الحضاري للخلافة العباسية. وكان قد استولى على العراق والموصل وقضى على الحمدانيين سنة 367هـ/968م، كما استولى على ديار بكر، وبسط نفوذه على الولايات التي كانت تحت إمرة أخيه فخر الدين سنة 369هـ/971م. بناءً على هذه التطورات، سارع بختيار بن فخر الدولة إلى عقد تحالف مع عمه فخر الدين وقابوس ضد عضد الدولة، إلا أن هذا الأمير تمكن من الاستيلاء على الرّي، وهمذان، ثم أصابه المرض فعاد إلى الموصل. وقد تمكن عضد الدولة من هزيمة بني شيبان واستولى على شهرزور، ثم هزم جنده الأكراد واستولوا على قلاع الهكارية، ثم وقع الصلح بين عضد الدولة وأخيه مؤيد الدولة، وذلك بفضل مساعي إسماعيل بن عباد وزير مؤيد الدولة. فلما وقع الصلح، عين عضد الدولة أخاه مؤيد الدولة حاكما على طبرستان وجرجان[3].

توفي عضد الدولة سنة 372هـ/984م، وخلفه ابنه كاليجار المزربان ولقب صمصام الدولة، ودخل في صراع مع عدة أطراف منهم أخوه شرف الدولة، وقد انتهى بالصلح لكن شرف الدولة بسط نفوذه على الشرق واستولى عل الكثير من العراق، فخاف صمصام الدولة على نفسه وسارع إلى لقاء شرف الدولة، الذي وضعه بالسجن في فارس، ودخل بغداد وصار حاكم الدولة في رمضان سنة 376هـ/988م، واستمر في الحكم إلى غاية وفاته سنة 379هـ/991م، وخلفه أخوه بهاء الدولة، ووقعت الفتنة والحرب بين صمصام الدولة وبهاء الدولة، ولم تنته إلا بعد مقتل صمصام الدولة. ولما توفي بهاء الدولة خلفه ابنه سلطان الدولة سنة 403ه/1012م)، واستمر سلطان الدولة في الحكم إلى غاية أن تنازل عن الحكم لأخيه مشرف الدولة سنة 411هـ/1020م،

[1] ابن الطقطقا، المصدر السابق، ص 288، 289، 290
[2] ابن الأثير، المصدر السابق، ج 7، ص 373، 374
[3] عصام الدين الفقي، المرجع السابق، ص 67، 68

واستمر في الحكم إلى غاية وفاته سنة 416هـ/1025م، وخلفه أخوه جلال الدولة، الذي خاض حروبا سعيا منه توحيد الدولة وبالأخص أمصار العراق كالبصرة التي تخضع مباشرة لمركز الخلافة ببغداد، كما أنه واجه شغب الجند وخاض صراعا مع الجند والقادة والأمراء[1].

أما في الشرق، قد تولى فخر الدولة الحكم، حيث قدم من نيسابور واتخذ من الرّي مركزا للدولة. وفي سنة 385هـ/995م، توفي الوزير إسماعيل بن عباد، وترك وصية لفخر الدين يحثه فيها على العدل، إلا أنه خالف الوصية. وفي سنة 387هـ/999م، توفي فخر الدين وخلفه ابنه مجد الدولة، ونظرا لصغر سنه، تولت الوصاية عليه أمه سيدة، التي تمكنت من تدبير الأمور، وأحسنت التسيير والسياسة، واهتمت بالإصلاحات فازدهرت البلاد. وكان قابوس قد تمكن من استرجاع طبرستان وجرجان، وذلك في الوقت الذي اضطربت فيه العلاقة بين مجد الدولة وأمه سيدة، وأدى ذلك إلى لجوئها إلى بدر بن حسنويه حاكم كردستان، فأكرمها وأعادها إلى الرّي وطرد مجد الدولة. وقد اهتمت سيدة أم مجد الدولة بالإصلاحات والعمارة، واستطاعت تحقيق ما لم يحققه غيرها، ثم تصالحت مع ابنها وعاد إلى دار ملكه، وعين أخاه شمس الدولة على همذان، واستمرت سيدة في تسيير وتدبير شؤون الدولة حتى وفاتها، وبموتها اضطربت الأوضاع وطمع الأمراء والقادة بالحكم، فاستنجد مجد الدولة بمحمود الغزنوي، الذي استغل الفرصة واستولى على الرّي، ثم قتل مجد الدولة سنة 450هـ/1037م. أما آخر الملوك البويهيين ببغداد الملك الرحيم خسرو فيروز، فقد وقع في يدي السلاجقة لما دخلوا بغداد سنة 447هـ/1056م[2].

الخلافة العباسية خلال عهد دولة السلاجقة (590-447هـ/1056-1194م)

الحديث عن الخلافة العباسية خلال هذا العهد، يقودنا إلى تتبع نشأة وتطور دولة السلاجقة وأوضاع الخلافة في خضم سلطانها. نقول، إن السلاجقة ينتسبون إلى سلجوق، وهم من الأتراك الغز، وكانت القبيلة تستقر في بلاد ملك الترك وهو على غير الإسلام شرقي نهر سيحون، فعبر سلجوق بقبيلته النهر إلى بلاد المسلمين، ونظرا لاعتناق القبيلة الإسلام وجدوا ترحيبا، فاستقروا ثم بدأ سلجوق يتوسع على حساب ملك الترك الكافر. وكان لسلجوق أربعة أبناء، فلما مات خلفه ابنه أرسلان، وسار على سيرة أبيه بالتوسع على حساب مملكة الترك الكفار، وكان أرسلان قد طلب الإذن من محمد الغزنوي بالاستقرار بإقليم خرسان، فوافق ثم خاف منهم، فحبس أرسلان وبعض القادة السلاجقة رهينة عنده في إحدى قلاع الهند، وبقي هناك حتى توفي سنة 422هـ/1031م، لكن ذلك لم يقف أمام طموح السلاجقة، حيث إن طغرلبك بن ميكائيل بن سلجوق ألحق الهزيمة بالأمير مسعود بن محمود الغزنوي في معركة وقعت بينهما قرب سرخس سنة 429هـ/1038م، ثم سار إلى نيسابور واستولى عليها، وأعلن قيام دولته في شهر رمضان في نفس السنة، ثم ألحق الهزيمة بالأمير الغزنوي محمود في معركة داندانقان سنة 331هـ/1039م[3].

علاوة على ذلك، لما أعن طغرلبك قيام دولته وجعل من الرّي عاصمة لها، واتخذ لقب السلطان، سارع إلى مراسلة الخليفة العباسي يطلب منه إصدار مرسوم يعترف له بشرعية دولته

[1] ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 3، ص 536-557
[2] عصام الدين الفقي، المرجع السابق، ص 68، 69
[3] ابن الطقطقا، المصدر السابق، ص 292، 293؛ عطية القوطي، المرجع السابق، ص 95، 96، 97

الناشئة سنة 432هـ/1040م، وكان الحصول على هذا الاعتراف، والانتصار في معركة داندانقان، حافزا دفع طغرلبك للسيطرة الكاملة على خرسان، ثم طبرستان وجرجان. وفي سنة 434هـ/1042م، استولى على خوارزم، ثم استولى على كل من أذربيجان وكرمان وهمذان سنة 437هـ/1045م، ورغم أن أبا كليجار البويهي صاهر طغرلبك فزوجه ابنته سنة 439هـ/1048م، إلا أن طغرلبك استولى على أصفهان سنة 442هـ/1051م، وبذلك قضى على الوجود البويهي في بلاد ما وراء النهر وفارس[1].

إذا أمعنا النظر في النصوص التاريخية، فيما تعلق بالاختلاف المذهبي بين الخلفاء العباسيين السُنَة والبويهيين الشيعة من جهة، والتوافق المذهبي السني بين الخلفاء العباسيين والسلاجقة من جهة أخرى، ومحاولة معز الدولة البويهي منذ سيطرته على بغداد القضاء على الخلافة العباسية، إلا أنه لم يتمكن من ذلك، وهناك أمر آخر يتعلق بالإذلال والتعذيب والسجن وسمل العينين والخلع الذي تعرض له خلفاء بني العباس على يد البويهيين، وما زاد من بغض الخليفة العباسي للسلطان أبي كاليجار البويهي الذي اعتنق المذهب الإسماعيلي على يد الداعية الشيعي المؤيد في الدين الشيرازي الموالي للفاطميين، وغض النظر عنه في نشر المذهب الإسماعيلي ببلاد ما وراء النهر وخرسان، الأمر الذي أدى إلى انتشار التشيع في بعض الأوساط، والذين بلغ بهم الأمر إلى حد المطالبة ببيعة الخليفة الفاطمي، وقد تعرض هؤلاء للقتل على يد العامة وكذلك حكام الأقاليم،، مما دفع الخليفة العباسي إلى تهديد أبي كاليجار بالاستنجاد بالسلاجقة السُنَّة. نعتقد أن هذه الأسباب مجتمعة جعلت الخليفة العباسي راغبا في التخلص من البويهيين والدخول في ظل حماية السلاجقة[2].

الحقيقة- أن هذا ما حدث حين انقلب البساسيري على الخليفة العباسي، الذي فر من بغداد، وأعلن البساسيري إسقاط الخلافة العباسية، ودعا للخليفة الفاطمي المستنصر بالله. فلما صارت بغداد في نفوذ الفاطميين سنة 450هـ/1059م، والخطبة تقام للخليفة الفاطمي، استنجد الخليفة العباسي الهارب بالسلطان السلجوقي طغرلبك، الذي كان منشغلا آنذاك في صراعات داخلية. فلما علم السلطان طغرلبك بالأمر زحف على بغداد واسترجعها، ثم طارد البساسيري وقتله، وبذلك استرجعت الخلافة العباسية عاصمتها بغداد من جديد بفضل السلاجقة. وقد توطدت العلاقة بينهما بالمصاهرة، حيث إن السلطان طغرلبك تزوج من ابنة الخليفة العباسي القائم بأمر الله (422-467هـ/1031-1075م)[3].

نشير إلى أن الخلافة العباسية تحسن وضعها في عهد السلاجقة، على ما كانت عليه في عهد البويهيين، وتخلصت من الإذلال والإرهاب الذي مارسه الأمراء البويهيون، واستعادت ما فقدته من هيبة، وكذلك عاد الدعاء للخلفاء العباسيين على المنابر خاصة في البلدان والأمصار، التي وقعت تحت طائلة النفوذ الفاطمي، ففي سنة 462هـ/1070م، أقدم محمد بن أبي هاشم أمير

[1] ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 3، ص 559، 560، 561؛ عطية القوطي، المرجع السابق، ص 97، 98، 99، 100

[2] نشير إلى أن هذه الأحداث والوقائع، أفادت بها المصادر التاريخية، وقد ذكرناها سابقا. ينظر: ابن الطقطقا، المصدر السابق، ص 288، 289، 290؛ ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 3، ص 522، 523؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج 8، ص 48

[3] ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 3، ص 573، 574، 575، 577، 578؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج 8، ص 153، 154، 155، 156، 157، 158، 169، 160، 161، 182

مكة على الدعاء للخليفة العباسي القائم بأمر الله، والسلطان السلجوقي ألب أرسلان، وفي المقابل أسقط الخليفة الفاطمي من الخطبة، وفي سنة 463هـ/1071م، أقدم حاكم حلب على إسقاط الخليفة الفاطمي من الخطبة، ودعا للخليفة القائم بأمر الله والسلطان ألب أرسلان[1].

وتجدر الإشارة إلى أن الخطر على الخلافة لم يأت من قبل السلاجقة، حتى في فترة شهدت شدة الاضطرابات بينهما، ولكن الخطر دوما كان يأتي من جانب الشيعة، مثلما حدث حين قام بعض خاصة الخليفة العباسي المسترشد (529-512هـ/1118-1134م) بتحريضه على السلطان السلجوقي مسعود، فجمع الجيش وخرج لقتاله، فانهزم وأسر، ورغم ذلك أكرمه السلطان وتصالحا، لكن الشيعة الباطنية استغلوا بُعد خيمة الخليفة عن جند السلطان، وقتلوه ثم جدعوه وصلبوه، فبعث السلطان في أثرهم وقتلهم جميعا في 17 ذي القعدة سنة 529هـ/1038م[2]. وقال ابن الطقطقا، إن السلطان سنجر طلب من السلطان مسعود حسن معاملة الخليفة ورفع مقامه بما يستوجب من مال وهدايا وإكرام، حيث قال:" فوصل كتاب السلطان سنجر إلى مسعود يأمره بالإحسان إلى الخليفة وإعادته إلى بغداد مكرما معززا، وأن يتلافى الحال معه، وأن يرد عليه أمواله وأن يجعل له من الحشم والبَرك والأسباب أعظم وأجل مما ذهب منه، ويعيده إلى بغداد على أتم حال"[3].

4_علاقات الدولة العباسية الخارجية في فترة البويهيين والسلاجقة

شهدت العلاقات الخارجية تطورا ملحوظا في ظل الدولتين، إلا أن ما يلفت النظر، أن الخلافة العباسية انكفأت على نفسها في اضطراب واضح، تسبب فيه البويهيون، تعلق ذلك بمحاولات إنهاء الخلافة العباسية، وذلك أكثر من تطلعهم لحماية الثغور أو التوسع شرقا وغربا، وخاصة فيما تعلق بالعلاقات مع الفاطميين، حيث إننا ذكرنا سابقا أن البويهيين كانوا على المذهب الشيعي، مما راودهم دوما حلم القضاء على الخلافة العباسية ونقل الدعاء للخلفاء الفاطميين، وقد شهدنا ذلك في محاولة معز الدولة البويهي، ثم المراسلات المتبادلة بين عضد الدولة والخليفة الفاطمي العزيز بالله، وإعلان عضد الدولة نيته في الدعاء للخليفة الفاطمي. ثم محاولات أبو كاليجار البويهي، وعلاقته مع الداعية الشيعي الإسماعيلي المؤيد في الدين الشيرازي، وكذلك مع الخليفة الفاطمي. ويمكن القول، إن تلك المحاولات وإن أثقلت كاهل الخلافة، إلا أنها لم تؤت ثمارها، ونجح في ذلك البساسيري حين أسقط الخلافة العباسية وذلك بسقوط بغداد ونواحي كثيرة من العراق لصالح نفوذ الخلافة الفاطمية سنة 450هـ/1059م، والذي قارب العام[4].

الجدير بالذكر، أن الصوائف انقطعت، وغزو بلاد الروم توقف، ولم يأمن أهل الثغور على أنفسهم من هجمات الروم، حتى استبد ناصر الدولة بن حمدان بالموصل، وملك أخوه سيف الدولة حلب وحمص سنة 333هـ/945م، فعادوا إلى غزو بلاد الروم، والدفاع عن الثغور. أما معز الدولة

---

[1] ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 3، ص 581؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج 8، ص 218، 221

[2] ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 3، ص 630، 631

[3] ابن الطقطقا، المصدر السابق، ص 303

[4] نشير إلى أن هذه الأحداث والوقائع، أفادت بها المصادر التاريخية، وقد ذكرناها سابقا. ينظر: ابن الطقطقا، المصدر السابق، ص 288، 289، 290؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج 7، ص 373؛ ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 3، ص 522، 523، 573، 574، 575، 577، 578؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج 8، ص 48، 153، 154، 155، 156، 157، 158، 169، 160، 161، 182

البويهي ومن أتى بعده، لم يكن لهم اهتمام بالثغور ولا الدفاع عن بلاد المسلمين. وكان البويهيون قد انكفأوا على الداخل فقط، وذلك ببذل الجهد في نصرة المذهب الشيعي، ومحاولات إخضاع المسلمين السُنة لولاء الخلافة الفاطمية[1]. أما في سنة 369هـ/، فقد استنجد ورد الرومي، وهو أحد أمراء وكبار بطارقة الروم بعضد الدولة البويهي، على أن يعلن الطاعة ويدفع الخراج، إذا ما أعانه على ملك الإمبراطورية البيونطية، فاتفقا على ذلك، وكان يحكم بيزنطة ولدي الإمبراطور أرمانوس بعد وفاته، فاتصلا بعضد الدولة، فوافق على طلبهما، وغدر بورد وأخيه وسلمهما لبيزنطة[2].

وفيما يخص، علاقات الخلافة الخارجية في فترة السلاجقة، فهي شهدت تطورا جليا خاصة مع البيزنطيين والفاطميين، فلم ينكفئ السلاجقة في الداخل، كما فعل البويهيون، بل تطلعوا إلى الجهاد ونشر الإسلام غربا على حساب الإمبراطورية البيزنطية، واستعادة أملاك الخلافة العباسية التي استولى عليها الفاطميون ببلاد الشام. ومن الشواهد التاريخية الدالة على ذلك، أن إمبراطور بيزنطة جمع أمم أوربا لغزو بلاد المسلمين سنة 463هـ/1071م، وبلغ عددهم أكثر من مائتي ألف جندي، ولما بلغ الخبر إلى السلطان ألب أرسلان السلجوقي سار إليهم على رأس خمسة عشر جنديا فقط، ودارت معركة بين الفريقين في ملاذ كرد، انتصر فيها ألب أرسلان، وكثير قتلى البيزنطيين، وأسر منهم الكثير، وكان ممن أسر الإمبراطور أرمانوس. وفي نفس السنة، استولى الأمير أتسز أحد الأمراء التابعين للسلطان السلجوقي على بلاد الشام، ففتح مدينة الرملة، ثم هزم الجيش الفاطمي وحاصر بيت المقدس وفتحه، وملك جميع المدن بفلسطين المجاورة لبيت المقدس باستثناء عسقلان، ثم سار وحاصر دمشق. وفي سنة 465هـ/1073م، تمت الخطبة باسم الخليفة العباسي ببيت المقدس. وفي سنة 467هـ/1075م، اشتد الحصار على دمشق، وبعد أشهر فرّ منها واليها الفاطمي، فاتفق الجند على توليه رزين المصمودي، إلا أنه هو الآخر لم يستطع تحمل الحصار، فسلم المدينة إلى الأمير السلجوقي أتسز فدخلها في ذي القعدة من نفس السنة، وخطب فيها يوم الجمعة باسم الخليفة المقتدي بأمر الله، وأسقط الدعاء عن الخليفة الفاطمي، كما أسقط من الآذان "حي على خير العمل". واستطاع السيطرة على معظم بلاد الشام التي استعادتها من جديد الخلافة العباسية. وفي هذه السنة، تم استعادة مدينة منبج من البيزنطيين. وفي سنة 469هـ/1077م، دخل الأمير أتسز بجيشه مصر، فعاث فيها حتى بلغ القاهرة وحاصرها، ثم فك الحصار وعاد إلى الشام، وفي سنة 474هـ/1082م، افتتح الأمير السلجوقي تُتُش مدينة أنطرطوس عل الساحل[3].

5_ النهضة العلمية فترة البويهيين والسلاجقة

شهدت الخلافة العباسية زمن البويهيين نهضة علمية، تركزت على نشر المذهب الشيعي عن طريق التأليف لإنشاء قواعد المذهب وفقهه، وتجلت مظاهره في العراق، حيث ظهرت مجاميع من العلماء الشيعة، ونشأت مراكز علمية بغرض تحقيق بيئة علمية تخدم سياسة البويهيين الرامية لنشر المذهب الشيعي، ومن ذلك علم الحديث، حيث برز علماء شيعة وضعوا أحاديث نسبوها للرسول صلى الله عليه وسلم، أمثال المحدث الشيعي أبو الفتح الأزدي الموصلي

[1] ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 3، ص 531
[2] ابن الأثير، المصدر السابق، ج 7، ص 368، 369
[3] ابن الأثير، المصدر السابق، ج 8، ص 223، 224، 225، 226، 244، 256، 257، 260، 261، 279

(ت367هـ /977م)، والمحدث الشيعي أبو الفضل الشيباني (ت 387هـ/997م)، وابن الجعابي (ت 355هـ/965م)، وأبو الطيب الدوري (ت 359هـ/ 969م)، والمحدث ابن البقال (ت 363هـ/973م)، والمحدث النوبختي (ت403هـ/1111م)، وغيرهم كثير[1].

وعرفت هذه الفترة نبوغ العديد من العلوم، والحقيقة أن هناك استمرارية في النبوغ العلمي والتطور الثقافي قبل العصر البويهي والسلجوقي وخلاله، وحتى بعد انقضائه، حيث ظهر الكثير من علماء اللغة والنحو والشعراء خلال الفترة البويهية، أمثال: أبو جعفر هارون الضبي (ت 335هـ/946م)، والأديب اللغوي غلام ثغلب أبو عمر محمد بن عبد الواحد (ت 345هـ/956م)، وله عدة مؤلفات ككتاب العثرات، وكتاب الفرق بين الضاد والظاء، وكتاب الداخل والزيادات، وكتاب فائت الفصيح. أما الأديب النحوي أبو بكر محمد بن علي العسكري (ت345هـ/956م)، كان يتبع المدرسة البصرية ومتعصبا لها، وله عدة مؤلفات منها، كتاب شرح شواهد سيبويه، وكتاب شرح كتاب الأخفش، وكتاب شرح كتاب سيبويه، وكتاب التلقين. أما الأديب النحوي أبو محمد عبد الله بن جعفر (ت 347هـ/958م)، نبغ في هذا العصر، واشتهر بعدة مؤلفات منها، كتاب أخبار النحويين، وكتاب الهداية في النحو. كما له كتاب في الرد على ثعلب في اختلاف النحويين، وكتاب ألفاظ الكتاب المتمم في الخط والهجا. أما الشعراء في هذه الفترة، كان أشهرهم المتنبي أبو الطيب (354هـ/965م)، مولده بالكوفة، وخدم الأمير سيف الدولة الحمداني، وكان قد انتقل إلى مصر، ثم بغداد، ثم فارس. وقد مدح عضد الدولة البويهي حين كان ببلاد فارس، وقتل في طريق عودته إلى بغداد[2]. والشعراء خلال هذه الفترة كثر لا يسعنا ذكرهم.

يبدو أن الفترة البويهية شهدت ظهور عدة مدارس أسسها أهل السنة خلال الفترة البويهية، وذلك في الكثير من الأمصار، ولا علاقة لها بالدولة البويهية التي اهتمت بمراكز علنية أنشأتها بالعراق، وذلك بهدف نشر الفكر والعقيدة الشيعية، وإظهار تبنيها للعلم والعلماء، حيث أفادت الروايات أن الإمام أبا حاتم البستي الأديب المحدث أنشأ مدرسة سماها "دارا" ببلده بُست، وقد جعل فيها غرفا للطلاب، وغرفا للدرس، ومكتبة مليئة بالكتب، فيها جميع مؤلفاته، كما أنه جمع لها المال والأرزاق خصصها لطلبة العلم الغرباء. وكان أتباع المذهب الشافعي بنيسابور، قد أسسوا مدرسة للإمام النيسابوري الحسين بن علي الحافظ. أما في طهران قام أعيانها بتأسيس مدرسة للفقيه الشافعي الإمام الحاتمي. وقد أسس الإمام المحدث أبو علي الحسيني مدرسة لتعليم الحديث وروايته، بلغ عدد الوافدين عليها من الطلبة حوالي ألف طالب علم من مختلف أقاليم البلاد الإسلامية. أما الإمام الإسماعيلي أسس مدرستين لتعليم الفقه الشافعي ببغداد، إحداهما ترأسها الإمام أبو إسحاق الإسفرائيني إبراهيم، والأخرى الإمام الباقي. علاوة على ذلك، قام فقهاء نيسابور ببناء أعظم مدرستين، للإمامين، الإمام المحدث الأديب ابن قورك محمد بن الحسن الأنصاري، والإمام أبو إسحاق الإسفرائيني إبراهيم[3].

---

[1] رشاد عباس، الحياة العلمية في العراق خلال العصر البويهي (447-334هـ/945-1055م) (أطروحة دكتوراه منشورة)، قسم الدراسات العليا الحضارية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، 1410هـ/1990م، ص 101

[2] رشاد عباس، المرجع السابق، ص 321، 322

[3] محمد أسعد طلس، المرجع السابق، ص 107، 108

وفيما يخص عهد السلاجقة، فقد تميز بحركة علمية وازدهار ثقافي، حيث أشاد بعض المؤرخين بأن الفضل في بناء المؤسسات العلمية يرجع إلى نظام الملك، وذلك فيما يعرف بالمدارس النظامية، التي شهدت تقدما في أساليب وطرائق التعليم، كان أشهرها المدرسة النظامية ببغداد التي أنشأها سنة 459هـ/1066 م)، وكان أول من درس فيها الإمام أبو إسحاق الشيرازي، ثم ولي التدريس فيها الإمام أبو نصر الصباغ، ثم ولي من بعده الإمام أبو سعيد ولما توفي، تولى التدريس من بعده الإمام الشريف العلوي أبو القاسم الدبوسي، ثم تولى التدريس كلا من الإمام أبي عبد الله الطبري والقاضي عبد الوهاب الشيرازي بالنوبة يوما بيوم، ثم تولى التدريس بها الإمام أبو حامد الغزالي سنة 484هـ/1092م، واستمر مشاهير العلماء في التدريس بالمدارس النظامية[1].

[1] ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 5، ص 15

الفصل الثالث: الاحتلال المغولي للشرق الإسلامي، وسقوط بغداد عاصمة الخلافة

1_ الخلافة العباسية خلال الفترة (656-622هـ/1255-1258م). قراءة في أسباب الضعف والانهيار

2_نشأة الدولة المغولية

3_احتلال المغول الشرق الإسلامي

4_سقوط بغداد عاصمة الخلافة العباسية

1_ الخلافة العباسية خلال الفترة (656-622هـ/1255-1258م). قراءة في أسباب الضعف والانهيار

تضافرت الظروف والأسباب التي أدت إلى انهيار الخلافة العباسية وسقوطها. وكان سقوطها على يد المغول، بسبب الضعف والانحطاط الذي وصلت إليه، ونحاول في هذه الدراسة تسليط الضوء على أسباب الضعف والانهيار خلال الفترة المشار إليها.

بناءً على ما قدمناه من دراسة سابقة، نحاول تحليل وعرض الأسباب والعوامل، التي تراكمت لتعطي صورة واضحة، عن الضعف والانحطاط الذي وقعت فيه الخلافة في الفترة المشار إليها. الخلافة العباسية بعد عصرها الذهبي، صارت تتأرجح بين الضعف ومحاولات استرداد نفوذها وقوتها من القادة الأتراك، ووضع حد للفوضى العسكرية، ثم صارت الخلافة العباسية رهينة القوى السياسية، التي نشأت بالشرق الإسلامي وزحفت على عاصمتها بغداد. وكان الخلفاء العباسيون لعبة في يدي سلاطين هذه الدول وبالأخص البويهيين، ثم إن دولة السلاجقة شكلت جدارا منيعا أمام الطامعين في ملك الخلافة كالفاطميين والبيزنطيين، واستطاع السلاجقة استرداد أملاك الخلافة التي كانت بيد الفاطميين، بالإضافة إلى هيبتها، وعاد من جديد الدعاء للخلفاء العباسيين على منابر الحجاز وبلاد الشام وبيت المقدس.

الملاحظ أن بمجرد انقسام دولة السلاجقة إلى كيانات سياسية متناحرة، حتى دب الضعف في بلاد الشرق الإسلامي، وأرهقها الصراع حتى لم تستطع الدفاع حين اجتازها المغول، ورغم أن الخلافة العباسية استعادت نوعا ما استقلالها من تلك الدول، إلا أن مناطق سيطرتها ونفوذها فقدتها لصالح الكيانات السياسية المستقلة، ولم يبق لها إلا القليل من البلاد، هذا الاستقلال رافقه ضعف وانهيار جعل منها كيانا ضعيفا منهارا سهل الاحتلال.

تجدر الإشارة إلى أن ضعف دولة السلاجقة، أدى إلى ظهور كيانات سياسية متصارعة كالدول الأتابكية، التي انشقت عن دولة السلاجقة، وذلك بعد وفاة السلطان ملكشاه الأول (465-485هـ/1072-1092م)، ودخلت الأتابكيات في صراع داخلي، وذلك في نفس الوقت الذي كان فيه تنافس ونزاع بين الأمراء السلاجقة، وهذا بالإضافة إلى كيانات سياسية أخرى، ولدت من ضعف السلاجقة وانقسامهم، وهي دول الشاهات، التي أسسها نواب السلاطين السلاجقة في الأقاليم والولايات، وأشهرها شاهات خوارزم وشاهات أرمينيا، وشجع الانقسام والضعف الصليبيين للزحف على بلاد المسلمين من الغرب، وزحف المغول من الشرق[1].

يعد ضعف الإيمان وانحلال العقيدة، وانتشار الظلم واختلال العدالة من بين أسباب ضعف الخلافة، بالإضافة إلى الاستهتار بدماء المسلمين، فتحول المتنافسون على السلطة والنفوذ إلى سفاحين للدماء، لا يهمهم ملة ولا دين في سبيل تحقيق مآربهم السياسية، وشاع الفساد في القضاء

[1] محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 247

والإدارة ورجال وأرباب الدولة، فلأصاب عموم المسلمين الضعف والوهن ودب فيهم الخوف والاستسلام، فآلت المجتمعات الإسلامية في أواخر العصر العباسي إلى التسليم للغزاة والمختلين[1].

2_نشأة الدولة المغولية

هضبة منغوليا، منطقة واسعة تجمع بين الصحراء والسهول والجبال والبحيرات والأنهر، وتقع بين نهري جيحون وسيحون من ناحية الغرب إلى الحدود الجبلية الشرقية مع الصين، وتستوطن قبائل كثيرة في السهول وقرب بحيرة بابكال وكذلك الأنهر، نذكر منها: قبائل الترك، كقبائل توركش التي استوطنت بالمناطق الغربية، ولقب ملوكها ب "خان"، إلا أن المسلمين قضوا عليها خلال العهد الأموي. وقبائل القرغيز، موطنها في بادئ الأمر عند نهر ينسي بهضبة منغوليا، وكان ملكها يلقب ب"خاقان"، وقد هزمت قبائل الأريغور بمنغوليا خلال القرن الثالث الهجري، إلا أنها انهزمت أمام قبائل الخطا التي طردتهم من منغوليا خلال القرن الرابع الهجري. وقبيلة الأغوز، وهم الغز يتشكلون من عشرة قبائل، انتقلوا إلى بلاد المسلمين خلال القرن الرابع الهجري. وقبائل القارلوق، التي سيطرة على نهر جو، وذلك بعد سقوط مملكة خاقان الغربية، اتخذ ملكها لقب "يبغوا"[2].

أما القبائل غير التركية، نذكر منها قبائل الخطا أو خيتاي، والتي تمكنت من تأسيس مملكة عظيمة خلال القرن الرابع الهجري، حيث استولت على شمال الصين وشمال منشوريا، كما امتد نفوذها إلى جنوب الصين، وبالإضافة إلى ذلك بلغوا نهر ينسي واستولوا على بلاد القرغيز، وامتد نفوذهم من بلاد الأغوز شرقا إلى خوارزم غربا، وكان يلقب ملكهم ب"الكورخان"، واتخذوا من مدينة بالاساغن عاصمة لهم، ثم ضعفت مملكتهم وفقدت الكثير من أملاكها، ولم يبق لهم إلا بلاد ما وراء النهر، فقضى عليهم الأمير علاء الدين محمد خوارزم شاه سنة 612هـ/1216م. أما قبائل التتار، كانوا يتشكلون من قسمين. القسم الأول، يضم تسعة قبائل، والقسم الثاني يتشكل من ثلاثين قبيلة، وكانت مواطن التتار تقع جنوب غربي بحيرة بايكال، حتى نهر كيرولين. والتتار يتفرعون إلى ثلاثة فروع، وهم التتار البيض وموطنهم خرج سور الصين، والتتار البيض وموطنهم شمال الصحراء وهم رحل، وتتار الغابة وموطنهم بجوار نهري كيرولين وأونون[3].

وفيما يخص قبائل الكرايت، أسسوا مملكة امتدت من نهر أرخون وجبال كنتاري إلى غاية سور الصين، وتغلبوا على جميع القبائل المغولية، واعتنقوا المسيحية مطلع القرن الخامس الهجري، وفي القرن السادس الهجري، تمكن طغرل وهو أحد الأمراء من قتل عمه والاستيلاء على الملك، وذلك بمساعدة أحد زعماء المغول واسمه "يوسحاي"، وهو والد جنكيز خان، كما أن الملك طغرل استطاع هزيمة قبائل التتار وإخضاعهم، ولقبه إمبراطور الصين " كين" بلقب "وانج"، وصار يعرف بلقب "وانج خان"، وتمكن من جعل مملكته أعظم وأكبر مملكة بمنغوليا. أما قبائل النايمان، فاختلفوا حول نسبهم إن كانوا من الترك أم المغول، لكن لغتهم كانت تركية، وموطنهم امتد من غرب قبائل الكرايت إلى نهر أرتيش. وفيما يخص قبائل برجقين المغولية، كان

[1] محمد قبّاني، الدولة العباسية من الميلاد إلى السقوط، ط 1، دار وحي القلم، دمشق، بيروت، 2006، ص 159، 160
[2] علي محمد الصلابي، دولة المغول والتتار بين الانتشار والانكسار، ط 1، دار المعرفة، بيروت، 2009، ص 30، 31
[3] علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص 31، 32

موطنها عند نهر تولا، ونهر أرنون، ونهر كيرولين. وينتمي جنكيز خان إلى هذه القبيلة، وكان نمط عيشهم يعتمد على الرعي والصيد، ونظرا لامتداد موطنهم بين نهر كيرولين شرقا إلى بحيرة بيكال غربا، فإنهم كانوا الأقرب من البلاد الإسلامية[1].

نشير إلى أن نشأة مملكة المغول، تعود إلى زعيم قبيلة مغولية يدعى قيدو، ومن نسله ينحدر جنكيز خان، حيث استطاع قيدو أن يؤسس مملكة، ولقب نفسه بلقب "خان"، وقد وقع تنافس بين أسرتين تنحدران من نسله، هما أسرة قيات التي ينتمي إليها جنكيز خان، وأسرة التايجيوت. وكان قد حكم المغول "كايل"، وهو من أحفاد قيدو، ووقعت الحرب بينه وبين "تاي سونج" إمبراطور الصين سنة 529هـ/1135م، وانتهت بهزيمة الجيش الصيني سنة 533هـ/1139م، هذه الهزيمة دفعت إمبراطور الصين إلى إثارة الصراع بين التتار والمغول، حيث حقق يسوكاي والد جنكيز خان، وهو من سلالة كايل، انتصارات على التتار وقتل تيموجين أحد أعظم زعماء التتار، وبمناسبة هذا الانتصار الساحق، سمى يسوكاي ابنه باسم تيموجين، وهو الذي لقب بعد ذلك باسم جنكيز خان، ونظرا لتحالف الجيش الصيني مع التتار ودعمهم، تمكنوا من إضعاف مملكة المغول وانهيارها، واستولى التتار على شرق صحراء جوبي. ويبدو أن خطر التتار على الإمبراطورية الصينية، دفع الإمبراطور الصيني إلى دعم المغول، فاستفاد جنكيز خان من دعم الإمبراطور الصيني، واستفاد أيضا من الصداقة التي جمعت بين أبيه وملك الكرايت[2]، والمصاهرة التي زوج فيها ابنيه من ابنتي أخ أونك خان ملك الكرايت، كما أنه تزوج من ابنة الملك أونك خان[3]، واستطاع تأسيس دولة عظيمة بمنغوليا سنة 616هـ/1220م[4]، وذلك بعد غزو الصين والاستيلاء عليها واحتلال مدينة بكين سنة 612هـ/1216م[5].

تجدر الإشارة إلى أن المجتمع المغولي في زمن جنكيز خان، كان ينقسم إلى ثلاثة طبقات. الطبقة الأولى، النبلاء، وكانت لهم عدة ألقاب، مثل لقب "بهادر" ويعني الباسل، ولقب "توبان" ويعني النبيل، ولقب "ستسن" ويعني الحكيم. أما الطبقة الثانية، الأحرار وتسمى "نوكور"، وهؤلاء كانوا ركيزة النظام السياسي والعسكري بمنغوليا أثناء حكم جنكيز خان، وكانوا جنده ومواليه. أما الطبقة الثالثة، ضمت العامة والرقيق. وكان على رأس كل قبيلة رئيس، قد يكون ملكا فيحمل لقب "خان"، وقد يكون زعيما فيحمل لقب "باكي"، وكانت القبائل الصغيرة أو الضعيفة تستجير بالقبائل الكبيرة والقوية. ويمكن القول، إن جنكيز خان تفوق على من سبقه من رجال القبيلة، وذلك في توحيد جميع القبائل المغولية، وإنشاء دولة قوية يحكمها قانون صارم وضعه بنفسه، نجح من خلاله في تنظيم الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وفرض الأمن والاستقرار بعد إخضاع جميع قبائل منغوليا[6].

---

[1] المرجع نفسه، ص 32، 33

[2] علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص 38، 39

[3] رشيد الدين فضل الله الهمذاني، جامع التواريخ، تاريخ المغول، المجلد الثاني، الجزء الأول، ترجمة محمد صادق نشأت وآخرون، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1960، ص 245

[4] ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 3، ص 659

[5] عباس إقبال، تاريخ المغول منذ حملة جنكيز خان حتى قيام الدولة التيمورية، ترجمة عبد الوهاب علّوب، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2000، ص 62

[6] علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص 32، 33، 34

3_احتلال المغول الشرق الإسلامي

كان جنكيز خان مهتما بتوطيد علاقات تجارية مع الدولة الخوارزمية ببلاد ما وراء النهر المحاذية لدولته، وكان تجار المسلمين يسلكون الطرق والمسالك، التي تخضع للدولة المغولية الناشئة، وذلك نظرا لقدرتها على فرض الأمن، وعدم وجود قطاع الطرق واللصوص. وقد نزل ثلاثة تجار مسلمين على جنكيز خان، وعرضوا عليه بضاعتهم، وكانت بضاعة نفيسة متنوعة، منها أقمشة مطرزة بالذهب، فأكرمهم واشترى بضاعتهم، وبعث معهم رسالة إلى سلطان خوارزم، يعرض فيها اتفاقية سلام وتجارة بين الدولتين، ورغم تردد سلطان خوارزم إلا أنه في نهاية المطاف ختم عليها، وذلك سنة 615هـ/1219م[1].

حسب هذه الاتفاقية، انتقل مجموعة من التجار المغول إلى مدينة أُترار، وهي مدينة محاذية للحدود مع الصين، وكانت بضاعتهم نفسية ومتنوعة. وقد ساور الشك غاير خان عامل المدينة، فأرسل إلى علاء الدين محمد سلطان خوارزم يبلغه أنهم جواسيس، فأمره بمراقبتهم، إلا أن غاير خان قام بقتلهم وسلب أموالهم، ولم ينج منهم إلا رجل واحد، تمكن من الفرار وإبلاغ جنكيز خان. فلما بلغ الخبر، أرسل جنكيز خان ثلاثة رسل إلى السلطان علاء الدين محمد، يطلب منه إرجاع البضاعة وتسليم عامله غاير خان، لكن سلطان خوارزم كان ضعيف البصيرة، حيث إن القرار الذي اتخذه كان ساذجا وغير لائق، وذلك حين أقدم على قتل الرسل، وقد دفع هذا السلوك جنكيز خان إلى غزو الدولة الخوارزمية[2].

يبدو أن جنكيز خان أراد إتمام توحيد البلاد، وإزالة جميع العقبات قبل غزو بلاد ما وراء النهر، حيث غزا دولة النايمان، وقضى على ملكها كوجلك خان في نفس السنة، ثم حشد الجيوش وزحف على بلاد ما وراء النهر في شهر رجب سنة 616هـ/1220م، وقد تضاربت الإحصائيات حول عدد جند المغول بين المصادر وتقدير الدراسات المعاصرة، حيث ذكرت بعض المصادر أن جيش المغول بلغ حوالي سبعمائة ألف جندي، في حين تقدر بعض الدراسات أن عددهم لم يتعد مئتي ألف جندي. تجدر الإشارة إلى أن جنكيز خان، قسم الجيش إلى أربع فرق. الفرقة الأولى، قادها ابناه جغتاي وأوجداي، وغددها عشرة آلاف، هدفها الاستيلاء على مدينة أُترار. أما الفرقة الثانية، قادها ابنه جوجي، وهدفها الاستيلاء على مدينة جَند، والمدن الواقعة قرب نهر جيحون. أما الفرقة الثالثة، عدد جندها لم يتجاوز خمسة آلاف، وكان هدفها الاستيلاء على مدينتي خَجند وبَناكت. وفيما يخص الفرقة الرابعة، وهي الأعظم والأكثر عددا وعدة، قادها جنكيز خان ورافقه ابنه تولوي، وكان هدفه احتلال مدينة بخارى[3].

وقد استولى المغول على جميع تلك المناطق، وارتكبوا مجازر فظيعة، وخربوا بخارى وعاثوا فيها فسادا، وكان مصير جميع المدن على ذلك النحو، واستولوا على تركستان وجميع بلاد ما وراء النهر، ودارت معارك بين الجيش الخوارزمي والمغول انتهت بهزائم مني بها علاء الدين الخوارزمي، وتمكن المغول من الاستيلاء على بلاد الجبل، ثم استولوا على أرّانيه، ثم سار المغول

---

[1] عباس إقبال، المرجع السابق، ص 63

[2] المرجع نفسه، ص 64

[3] عباس إقبال، المرجع السابق، ص 64، 65، 66

فاستولوا على بلاد شروان وبلاد اللاّن واللكز، ثم سيطروا على بلاد القُفجاق. وفي الوقت ذاته، كانت هناك قوات أخرى، قد استولت على غزنة وجميع البلاد التابعة لها من الهند، وسجستان، وكرمان، وتعرضت هذه البلدان ما تعرض لها غيرها من القتل والسلب والنهب والحرق، وأفعال لم يسبق أن فعلها غيرهم من قبل. أما علاء الدين محمد الخوارزمي بعد انهزامه لجأ إلى جزيرة في بحر طبرستان وتحصن إلى أن مات، وذلك سنة 617هـ/1221م، واستمر حفيده جلال الدين في المقاومة من غزنة، واستبسل في القتال وأظهر شجاعة وصبر، وكبد المغول خسائر كبيرة، إلا أنه انهزم واضطر لعبور نهر السند إلى الهند[1].

وكان جيشه بعد الهزيمة قد تفرق بين مختلف الأقاليم، ولما اجتاز النهر إلى الهند بدأ الإعداد من جديد، فجمع المتطوعة ولحقت به فرق من الجيش لما علموا أنه ما يزال حيا، ورفض حاكم دلهي دعمه، وذلك خوفا من أن تتعاظم قوته ويهدد ملكه، وحين ضبط جنده، عاد وانتقل إلى خوزستان سنة 621هـ/1225م، وبعث إلى الخليفة الناصر لدين الله (575-622هـ/1180-1225م)، يطلب الدعم لقتال المغول، لكن الخليفة رفض ذلك، بل إنه أمر جمال الدين قشتمر لحربه على رأس جيش يقدر بحوالي عشرين ألفا، كما طلب العون من مظفّر الدين كوكبوري (586-630هـ/1191-1233م)، أمير أربيل، وذلك للانضمام إلى القتال ضد جلال الدين، إلا أن جلال الدين هزم مظفّر الدين واستولى على ششتر، ثم هزم جمال الدين قشتمر واستولى على البصرة، ثم استولى على بعقو ودقوقا، ثم تمكن من أسر مظفّر الدين، إلا أنه أحسن إليه وأطلق سراحه، ثم توجه إلى أذربيجان. فلما حقق هذه الانتصارات، بعث الخليفة الناصر مرسوما إلى يغان يعينه واليا على همذان، ويطلب منه القضاء على جلال الدين، ولما اشتد الحصار على يلغان تراجع وأعلن الولاء للسلطان جلال الدين، ثم شن السلطان هجوما على إمارة الكرج سنة 622هـ/1226م، وكان أهلها على الكفر ويشنون هجمات على مسلمي أذربيجان وآران، وفي سنة 623هـ/1227م، استولى على تفليس. أما صراعه مع المغول، ففي سنة 625ه/1229م، دارت بين السلطان جلال الدين والمغول معارك بالقرب من أصفهان، ورغم أنه انهزم إلا أنه استطاع تنظيم شؤون البلاد الخاضعة له، ثم فتح مدينة أخلاط سنة 227هـ/1231م، وفي هذه السنة انهزم على يدي علاء الدين كيقياد. وقد استمر السلطان جلال الدين يقاوم المغول، ويتنقل من منطقة إلى أخرى، إلا أنه قتل على يد أحد الأكراد بجبال ميافارقين سنة 628هـ/1232م، وذلك أن الكردي أراد الانتقام لمقتل أخيه على يد الخوارزميين بمدينة أخلاط[2].

وفيما يخص المغول، فقد استولوا بعد ذلك على كافة البلاد وعاثوا فيها فسادا، وصار هولاكو الخطر الأكبر على بلاد المسلمين وبالأخص عاصمة الخلافة الإسلامية، حيث حاصر كيتو بوغا نويان قلاع وحصون الملاحدة في شهر جمادى الآخرة سنة 650هـ/، ثم إن هولاكو اتجه على رأس الجيش وحاصر قلعة ألموت، واستولى عليها وخربها سنة 654هـ/، وأخضع خورشاه أمير الشيعة الباطنية الإسماعيلية، ثم اتجه هولاكو إلى همذان سنة 655هـ/1258م، وبعد ذلك اتجه

[1] ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 3، ص 659، 660
[2] عباس إقبال، المرجع السابق، ص 139-163

إلى الدينور في شهر ربيع الآخر من نفس السنة، ثم عاد إلى همذان، وكان هدفه بغداد عاصمة الخلافة العباسية[1].

4_سقوط بغداد عاصمة الخلافة العباسية

قد ذكرنا سابقا، ما وصلت إليه الخلافة العباسية من ضعف وانحطاط، كما أن الخليفة الناصر لدين الله ارتكب خطأ فادحا، حين لم يستجب لدعوة السلطان جلال الدين الخوارزمي في توحيد القوى الإسلامية في مواجهة الغزو المغولي القادم من الشرق، بل إن الخليفة عجل في سقوط بغداد، وذلك حين جمع الأمراء وعبأهم لقتال السلطان جلال الدين، والذي يعتبر آخر السلاطين آنذاك، الرافع راية الجهاد ضد المغول. وهذا لا ينم إلا على ضعف بصيرة، وفساد حال الخلافة، وإنفاق الموارد واستنزاف الجيش في صراعات داخلية، وفي الوقت ذاته تغاض عن الخطر المغولي الذي لا يعرف حدا لغزواته الدموية.

كان هولاكو طامعا في الاستيلاء على بغداد، والقضاء على الخلافة العباسية، وبعد إخضاع الشرق الإسلامي بأكمله وإزالة العقبات، والاستيلاء على مناطق عدة من بلاد الروم، وضع هولاكو نصب عينيه بغداد عاصمة الخلافة، فسار إلى الدينور سنة 655هـ/1258م، ثم عاد إلى همذان، وقرر التفاوض مع الخليفة العباسي المستعصم بالله (640-656هـ/1242-1258م)، وترددت الرسل بين الطرفين[2]. أما فيما يخص الخلافة العباسية، كان سبب ضعف قوتها، ومقتل خليفتها وسكان عاصمتها ودمار حضارتها، يعود إلى خيانة مؤيد الدين محمد بن أحمد العلقمي وزير الخليفة (ت 656هـ/1258م). أما سبب خيانة الوزير ابن العلقمي، ترجع إلى عدة دوافع، نذكر أهم رواية في ذلك، أن الوزير ابن العلقمي كان شيعيا، فقويت شوكة الشيعة بفضله، وتطاولوا على السُنة، وتجرأ الشيعة بالكرخ على الهجوم على السُنة، فوقعت الفتنة بينهم. وقد رد على ذلك، الخليفة وابنه أبو بكر وركن الدولة الدوادار قائد الجيش، فنهبت بيوت الشيعة بالكرخ، وكان لذلك وقع شديد على الوزير ابن العلقمي، الذي امتلأ قلبه بالحقد على الخليفة، وبدأ يخطط لجلب المغول نحو بغداد، والقضاء على الخلافة[3].

الوزير ابن العلقمي شرع في خطوات الانتقام والسعي للقضاء على الخلافة، حيث سارع إلى الاتصال بهولاكو، وأقنع الخليفة بضرورة تقليص عدد الجند وتحجج في ذلك بنقص المال وعدم القدرة على دفع رواتب الجند، ورغم معارضة القائد الدواندار، إلا أن الخليفة عمل بمشورة وزيره، فتراجع عدد الجيش وضعفت الهمم، وضاعف الضرائب على العامة فاحتجوا واضطربت الأوضاع، واستغل ذلك العيارون والدّعار والمفسدون وعاثوا فسادا ونهبا، وبذلك حقق الوزير هدفه في خلق الفوضى والاضطرابات، وإضعاف الجيش حتى يكون غير قادر على التصدي للمغول. وفي الوقت الذي كان فيه الوزير ابن العلقمي يطمئن الخليفة بأن المغول ليس هدفهم بغداد وهم بعيدون عن غزوها، كان يراسل هولاكو ويحرضه على غزو بغداد وقتل الخليفة، ويرشده إلى

[1] رشيد الدين فضل الله الهمذاني، المصدر السابق، ص 248-267
[2] رشيد الدين فضل الله الهمذاني، المصدر السابق، ص 267
[3] ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 3، ص 662

عوراتها، ويقترح عليه خطة للقضاء على الخلافة والاستيلاء على بغداد. فلما بلغ مراده، وزحف هولاكو على بغداد ووقعت معركة غير متكافئة، ثبت فيها الجيش العباسي، وأظهر الدوادار شجاعة وصبر وإقدام، ولم يقتل حتى أثخن فيهم قتلا[1].

وكان استشهاد القائد الدوادار، وقلة جند بغداد حافزا لتنفيذ آخر خطوات مؤامرته الدنيئة، حيث أقنع الخليفة أنه إذا خرج وتفاوض بنفسه مع هولاكو سيبقيه على الخلافة، وأشار عليه بأخذ الأمراء والنبلاء والقادة وأهل بيته، ففعل، وما كان على هولاكو إلا أنه قبض على الخليفة، وأمر بقتل الجميع، ثم أمر أن يقتل الخليفة المستعصم بالله ضربا بالعمد ووطأً بالأقدام، وذلك راجع إلى أن المنجمين حذروه من إراقة دمه النبيلة؛ لأنه من أهل البيت، ولذلك اختار هذه الطريقة في قتله، ثم دخل بغداد، فكثر فيها القتل والسلب والنهب، ولم يسلم منهم لا طفل ولا امرأة ولا شيخ، وقد رجحت إحدى الروايات بأن عدد القتلى بلغ ألف ألف وستمائة ألف، وخربت دار الخلافة ونهبت، وخربت خزائن الكتب وأحرقت، وألقيت الكتب بنهر دجلة، وبذلك سقطت الخلافة العباسية سنة 656هـ/1258م[2].

[1] ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 3، ص 662، 663
[2] المصدر نفسه، ص 663

خاتمة

تعد هذه الدراسة من الدراسات، التي اهتمت بتاريخ وحضارة المسلمين في صدر الإسلام، والتي حاول الباحث من خلالها، تقديم جملة من الفوائد النفيسة من سيرة العرب في الجاهلية والإسلام، وذلك لضبط وتحديد مكامن القوة والضعف في سلوك المسلمين، وأخذ العبر من خلال تقديم جملة من المعارف والخبرات لأجيال المستقبل للاستفادة من الماضي، وتدارك الحاضر، وبناء المستقبل.

الدراسة تعطي صورة واضحة، على أن سبب زوال هيبة المسلمين واندثار حضارتهم، يعود إلى النزاع حول مصالح شخصية ضيقة، والتي أخذوها فوق كل اعتبار، ولا هم لهم إن فقدت الأمة الإسلامية حاضرها وجهلت مصير مستقبلها، وهذا ما لا بد على أجيال الأمة تداركه في زمننا المعاصر.

الحقد والبغض والكراهية والغيرة والصراع حول المناصب، كل هذا وغيره أدخل الأمة في نفق الجهل والظلام، وأدت تلك الأمراض النفسية البغيضة إلى عزل، وقتل، ونفي شخصيات سياسية وعسكرية واستشارية نفيسة، وبفقدها فقدت الأمة مصابيح تنوير حضارتها، وانكبت في التراجع والتخلف، وانتقلت من رائدة الأمم إلى مؤخرتها؛ ولهذا لا بد على القارئ أن يعي نتائج الدراسة التي سلطت الضوء على إنجازات حضارية تخللها فساد، وصراع، وفشل، وانهيار.

تغليب المصلحة العامة للأمة، وتجنب التنافس أو الصراعات الداخلية، وذلك بالتقيد بالكتاب والسنة، وما دعت إليه من حرمة الفُرقة وألزمت المؤمنين بالوحدة واتباع الإمام، وألزمت الإمام باتباع القرآن وانتهاج سنة النبي محمد صلى الله عليه وسلم. ونذكر في هذا المقام، ما أفادت به الدراسة عن حادثة هامة، لم يعرها الكثيرون اهتماما. إذ أن الخليفة العباسي، لو لم يرفض عرض جلال الدين الخوارزمي وأضاع جهد الأمة في اقتتال داخلي، ولو اتحد الأمراء مبادرة الوحدة، وغلبوا مصلحة الأمة على مصالحهم الضيقة، لما استطاع المغول بعد فترة من ذلك الوصول إلى بغداد.

نقول، إن من أخطر ما يهدم الأمم الخيانة، وذلك راجع إلى تغليب المصالح الشخصية التي قد تكون مادية تتمثل في جمع المال أو اعتلاء المناصب أو الحسد أو الطائفية، وحتى نكون صادقين مع القارئ، أن غرس الوعي الديني والقومي والوطني حول خطورة وبشاعة الخيانة، وإشهار ذلك في المدارس والعائلات والشوارع كفيل بالحد من هذه الظاهرة. وقد رأينا من خلال الدراسة، كيف أن الوزير ابن العلقمي، سولت له نفسه خيانة الله ورسوله، وخيانة الخليفة، وهو من أعظم رجالها وتسبب في زوال الخلافة الإسلامية.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر

_ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 2012

2_ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق محمد عبد المنعم العريان، ط 1، دار إحياء العلوم، بيروت، 1987

3_البلاذري أبو العباس أحمد، فتوح البلدان، تحقيق عبد الله أنيس، مؤسسة المعارف، بيروت، 1987

4_البلاذري أبو العباس أحمد، جمل من أنساب الأشراف، تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي، ط 1، دار الفكر، بيروت، 1996

5_البلخي أبو زيد أحمد، البدء والتاريخ، وضع حواشيه خليل عمران المنصور، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1997

6_ابن جبير أبو الحسن محمد، رحلة ابن جبير، دار ومكتبة الهلال، بيروت، دون تاريخ

7_الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992

8_ابن خلدون عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الفكر، بيروت، 2000

9_ابن خلدون عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيت الأفكار الدولية، الأردن، دون تاريخ

10_رشيد الدين فضل الله الهمذاني، جامع التواريخ، تاريخ المغول، المجلد الثاني، الجزء الأول، ترجمة محمد صادق نشأت وآخرون، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1960

11_الطبري أبو جعفر محمد، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط 2، دار المعارف، مصر، 1967

12_ابن الطقطقا محمد بن علي طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت، دون تاريخ

13_ابن قتيبة عبد الله بن مسلم، المعارف، تحقيق تروث عكاشة، ط 4، دار المعارف، القاهرة، دون تاريخ

14_ابن كثير، البداية والنهاية، ط 8، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، 1990

15_ابن مسكويه أحمد بن محمد، العيون والحدائق في أخبار الحقائق، مكتبة المثنى، بغداد، 1964

16_مؤلف مجهول، أخبار الدولة العباسية، تحقيق عبد العزيز الدوري وعبد الجبار المطلبي، دار الطليعة، مطابع دار صادر، بيروت، 1971

17_ابن النديم، الفهرست، دار المعرفة، بيروت، دون تاريخ

18_ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1995

19_اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي، تحقيق عبد الأمير مهنا، ط 1، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 2010

قائمة المراجع

قائمة الكتب

1_ أحمد شلبي، التربية الإسلامية نظمها – فلسفتها – تاريخها، ط 6، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1978

2_ جرجي زيدان، الأمين والمأمون، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2011

3_ حسين عطوان، الدعوة العباسية تاريخ وتطور، ط 2، دار الجيل، بيروت، 1995

4_ سعيد الديوجي، بيت الحكمة، ط 2، مؤسسة دار الكتب للنشر، بغداد، 1972

5_ عباس إقبال، تاريخ المغول منذ حملة جنكيز خان حتى قيام الدولة التيمورية، ترجمة عبد الوهاب علّوب، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2000

6_ عصام الدين الفقي، الدول المستقلة في المشرق الإسلامي من مستهل العصر العباسي إلى الغزو المغولي، ط 1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1999

7_ عطية القوطي، تاريخ الدول المستقلة في الشرق عن الخلافة العباسية، مكتبة دار النهضة العربية، 1993

8_ علي عبد الرحمن العمرو، أثر الفرس السياسي في العصر العباسي الأول، ط 1، مكتبة المهتدين الإسلامية، 1979

9_ علي محمد الصلابي، دولة المغول والتتار بين الانتشار والانكسار، ط 1، دار المعرفة، بيروت، 2009

10_ مبروك بهي الدين الدعدر، الكتاتيب نشأتها وأنماطها وأثرها في تعلم وتعليم القرآن الكريم، مركز تفسير للدراسات القرآنية، الرياض، دون تاريخ

11_ محمد أسعد طلس، التربية والتعليم في الإسلام، مؤسسة هنداوي، القاهرة، 2014

12_ محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة الأموية، ط 7، دار النفائس، بيروت، 2010

13_ محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة العباسية، ط 7، دار النفائس، بيروت، 2009

14_ محمد قبّاني، الدولة العباسية من الميلاد إلى السقوط، ط 1، دار وحي القلم، دمشق، بيروت، 2006

15_ نبيلة حسن محمد، تاريخ الدولة العباسية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1993

16_ يوسف العش، الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ابتداءً من فتنة عثمان، ط 2، دار الفكر، دمشق، 1985

قائمة الرسائل والأطروحات الجامعية

1_ رشاد عباس، الحياة العلمية في العراق خلال العصر البويهي (334-447هـ/945-1055م) (أطروحة دكتوراه منشورة)، قسم الدراسات العليا الحضارية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، 1410هـ/1990م

2_ هدى أحمد العيسى، قضية ولاية العهد منذ تأسيس الدولة العباسية حتى وفاة الخليفة المتوكل (132-247هـ/750-861م)، رسالة أعدت لنيل درجة الماجستير في تاريخ العرب والإسلام، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ، جامعة دمشق، 1427هـ/2006م

قائمة **المقالات**

1_ أحمد شهاب أحمد وغازي فيصل صالح:" أثر ولاية العهد على الحكم في العصر العباسي (132-656هـ/750-1258م)"، **مجلة المدارات العلمية للعلوم الإنسانية والاجتماعية**، م 2، ع 2، 2024

2_سعد بن عيسى المزيني، "أمهات الخلفاء العباسيين وأثرهن على ولاية العهد (132-334هـ/750-945م) دراسة تاريخية "، **المجلة الدولية للعلوم الإنسانية والاجتماعية**، ع 57، ماي 2024